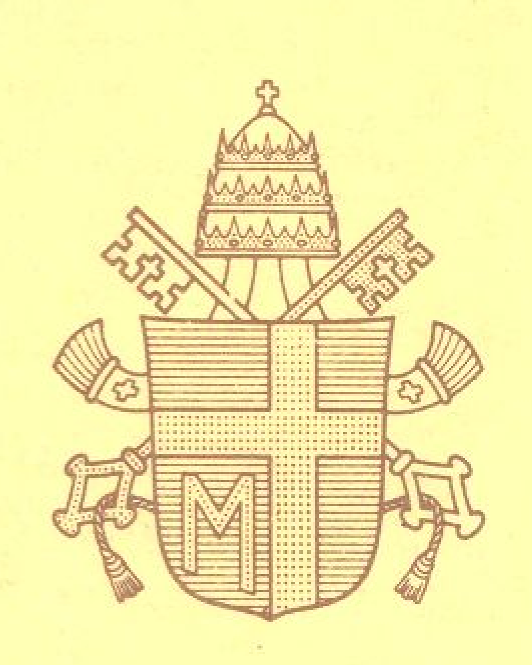


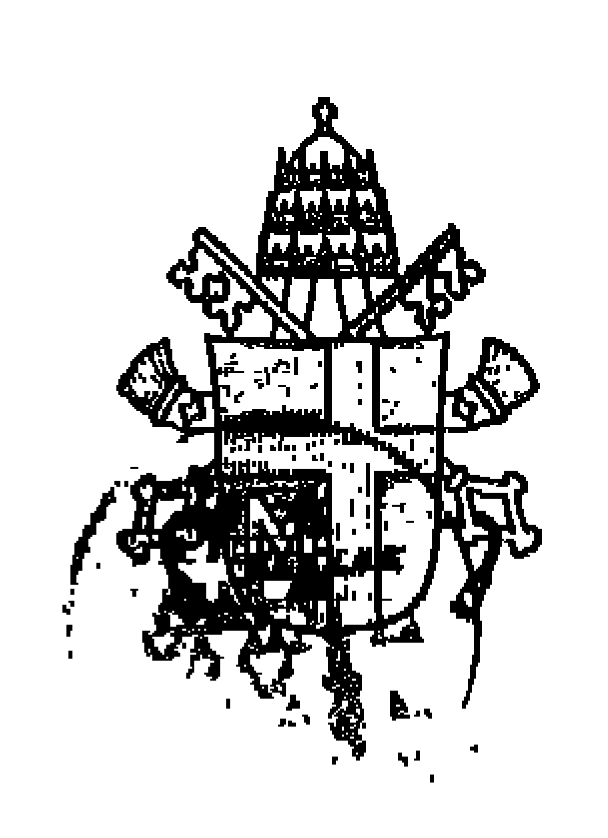
الألم الخلاصي

رسالة
الحبر الأعظم
البابا يوحنا بولس الثاني
الرسولية

إلى أساقفة الكنيسة الكاثوليكية جمعاء
وكهنتها وعائلاتها الرهبانية
ومؤمنيها

في المعنى المسيحي
للآلام البشرية





الألم الخلاصي

رسالة
الحبر الأعظم
البابا يوحنّا بولس الثاني
الرسوليّة

إلى أساقفة الكنيسة الكاثوليكية جمعاء
وكهنتها وعائلاتها الرهبانية
ومؤمنيها

في المعنى المسيحي
للآلام البشريّة

ايها الاخوة الأجلّاء
والابناء الأعزاء،

١
مقدمة

١ . عندما اوضح بولس الرسول قيمة الألم الخلاصي، قال: «أتمّم بجسدي ما نقص من آلام المسيح، لأجل جسده الذي هو الكنيسة»[1].

ان هذه العبارة تبدو كأنها تضع حدّاً للطريق الطويل الذي يمرّ بالآلام، هذه الآلام التي تندرج دائماً، نوعاً ما، في تاريخ البشر، وتستنير بكلمة الله. ولعبارة مار بولس هذه من جليل القدر ما يجعل منها اكتشافاً جديداً يصاحبه الفرح. ولهذا كتب الرسول: «وانا أفرح بالآلام لأجلكم»[2]. وينبع هذا الفرح من معنى الألم، على ما

١ ـ كولوسي ١، ٢٤
٢ ـ الموضع ذاته

تفهّمه الرسول. ورغم ان هذا المفهوم يختص، بدرجة اولى، بمار بولس الذي كتب هذه العبارة، فهو يتناول ايضاً الآخرين. وان الرسول، اذ يشرك سواه في ما تفهّمه، يفرح لكون هذا المفهوم سيساعد الناس - مثلما ساعده - على التعمّق في فهم معنى الألم الخلاصي.

٢ . يبدو ان موضوع الألم - من وجهته الخلاصية على الأخص - يدخل كلياً في اطار سنة الفداء المقدسة التي تحتفل الكنيسة فيها باليوبيل الاستثنائي. وهذا ما يحمل، في هذه المناسبة، على البحث في هذا الموضوع بحثاً عميقاً دقيقاً. لكن الألم، بقطع النظر عن السنة المقدّسة، مسألة انسانية، يتأثر بها جميع الناس على اختلاف طبقاتهم في طول الارض وعرضها، بحيث تبدو هذه الآلام كأنها ولدت مع الانسان يوم مولده. وهذا ما يستدعي العودة الدائمة الى البحث في هذا الموضوع. ورغم ان بولس قد كتب في رسالته الى الرومانيين: «ونحن نعلم ان الخليقة كلها ما زالت الى اليوم تئنّ بآلام المخاض»[٣]، ورغم انّا نرى حولنا حتى الحيوانات تعاني من الألم، فان ما تعرب عنه لفظة «ألم»، هو، على ما يبدو، بطريقة خاصة، من جوهر الطبيعة البشرية. وهو عميق عمق الانسان ذاته، لانه يظهر، نوعاً ما، ما في الانسان من عمق ويتخطّاه على طريقته. ويعود الألم، على ما يبدو، الى ما يتفوّق به الانسان على الأشياء. انه من تلك الامور التي «يُهيِّئ» الانسان معها، على نحو ما،

٣ - روم ٨، ٢٢

لتخطّي ذاته، وهو مدعو الى ذلك دعوة خفية عجيبة.

٣. واذا كانت تجب معالجة موضوع الألم، خاصة في سنة الفداء المقدّسة هذه، فذلك، قبل كل، لأن الفداء قد تمّ بصليب المسيح، اي بآلامه. وتتبادر الى الذهن عفوا في سنة الفداء هذه الحقيقة التي اعربت عنها الرسالة التي عنوانها فادي الانسان وهي: «ان كل انسان في المسيح هو طريق الكنيسة»[٤]. ويمكن القول ان الانسان يصبح طريق الكنيسة خاصة، عندما يدخل الألم في حياته، وهذا ما يحدث، على ما هو واضح، في مختلف مراحل الحياة، ويتأتّى بطرق مختلفة، ويتّخذ ابعاداً متباينة. لكن الألم، ايّاً يكن شكله، وهذه حقيقة راهنة، لا يمكن البتة، على ما يبدو، فصله عن حياة الانسان على الأرض.

ولما كان الانسان يسير في حياته على الارض، بنوع او بآخر، على طريق الألم، فلا بدّ للكنيسة في كل زمن ـ وعلى الأخص، ربّما، في سنة الفداء ـ من ان تلتقي الانسان على هذا الطريق. وعلى الكنيسة التي ولدت من سر الفداء العجيب على الصليب، ان تسعى الى ملاقاة الانسان الرازح تحت وطأة الألم، لأن الانسان في هذا اللقاء «يصبح طريق الكنيسة»، وهذا الطريق هو افضل الطرق على الاطلاق.

٤ ـ راجع عدد ١٤، ١٨، ٢١، ٢٢: اعمال الكرسي الرسولي ٧١ (١٩٧٩) ص ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥، ٣٠٤، ٣٢٠، ٣٢٣

٤. والى هـذا مـردّ مـا لهـذه الخـواطـر في الألم من اهميـة، ونحن لا نزال في سنـة الفداء. وفي الـواقـع ان الألم البشـري يستـدعي الشفقـة، ويـولّـد الاحترام، ويثير، على طريقته، المخاوف: ذلك انه ينطوي على عظمة سرّ فريد. ويجب ان يحتلّ هذا الاحترام للألم البشري محلّ الصدارة في ما سنقوله بدافع من حاجة نابعة من صميم القلب، وتلبية لداعي الايمان. ويبدو ان هذين الامرين يلتقيان في معالجة مـوضوع الألم، عـلى صعيد واحد، لا بل انهما يتّحدان: فحاجة القلب تأمر بالتغلّب على الخوف، وداعي الايمان ـ حسب ما حدّده مار بولس، على ما رأينا آنفاً ـ يقدّم لنا ما من أجله وبواسطته نتجرّأ على ان نلامس في الانسان ما يبدو انه تستحيل ملامسته في اي انسان، ذلك ان الانسان المتألّم يرتدي طابعاً من السرّية لا ينتهك.

٢

عالم الألم البشري

٥. رغم ان الألم ـ اذا نظرنا اليه نظرة ذاتية، بما انه مسألة شخصيّة تكمن في اعماق وعي الانسان الواقعي الفريد ـ يستحيل تحديده او نقله، على ما يظهر، فليس ربما هناك أمر، اذا نظرنا الى «واقعه الموضوعي»، تجب معالجته، والتأمّل فيه، وتفهّمه، مثل هذا الامر الذي تُلقى بشأن طبيعته اسئلة تستدعي اجوبة. ولفهم هذا الأمر حق الفهم، يجب الاّ نكتفي هنا بوصف الألم، وهناك مبادىء اخرى تعتمد للحكم بشأنه تتعدّى الوصف المجرّد، وهي مبادىء لا بدّ من اللجوء اليها، اذا اردنا ان ندخل حرم الألم البشري ونتفهّمه على حقيقته.

معلوم ان الطب، كعلم وفن استشفاء، اهتدى في مجال الألم البشري الفسيح الى ما اصبح معروفاً، ومنه ما يمكن التأكّد منه بالبحث الدقيق، ومنه ما يُقضى عليه بالاحرى بوسائل العلاج، (أعني معالجة الضدّ بالضدّ). ولكن هذا ان هو الاّ وجه من وجوه الألم، لأن مجال الألم البشري واسع جداً، على ما فيه من تنوّع وتعدّد.

والانسان يقاسي اشكالاً من الألم لا يستطيع الطب الاهتداء اليها دائماً، ولو في اكثر فروعه تقدّماً. وهذا ما يجعل الألم البشري اوسع انتشاراً من المرض، واكثر تعقيداً، واعمق جذوراً في البشرية عينها. ويسهل علينا البحث في هذا الأمر، اذا ميّزنا بين الألم الطبيعي والألم المعنوي. ويستند هذا التمييز الى تركيب الانسان من جسد وروح يجعلانه خاضعاً مباشرة للألم. ورغم انه بالامكان استعمال كلمتي «عذاب» و «ألم» بالمعنى عينه، فهناك عذاب جسدي عندما «يتألّم الجسد» بنوع او بآخر؛ والعذاب المعنوي هو «ألم النفس». فالمسألة اذن، مسألة الم ذي طابع روحي وليست فقط مسألة بعد الألم النفساني الملازم للعذاب المعنوي والجسدي. وممّا لا شك فيه ان العذاب المعنوي ليس باقلّ انتشاراً وتنوّعاً من العذاب الجسدي، ويصعب اكتشافه، على ما يبدو، وشفاؤه بالمعالجة.

٦. ان الكتاب المقدّس هو كتاب كبير في الألم.

ولنقتطف من العهد القديم بعض امثلة عن حالات يتجلّى فيها الألم بوضوح، وعلى الأخص الألم المعنوي، فنجد الألم لدى خطر الموت،[٥] وفقدان البنين[٦]، وخاصة اذا كان الابن البكر الوحيد[٧]، وكذلك لدى حرمان

٥ ـ على ما قاساه حزقيا (راجع اشعيا ٣٨، ١ ـ ٣).

٦ ـ على ما كانت تخشاه هاجر (راجع تك ١٥ ـ ١٦)، ما توهّمه يعقوب (راجع تك ٣٧، ٣٣ ـ ٣٥)، وما اختبره داود (راجع ٢ صموئيل ٩، ١).

٧ ـ هذا ما كانت تخشاه حنه والدة طوبيا (راجع طوبيا ١٠، ١ ـ ٧؛ راجع ايضاً ارميا ٦، ١٢٦ عاموص ٨، ١٠؛ زكريا ١٢، ١٠).

النسل[٨]، والحنين الى الوطن[٩]، واضطهاد الناس وعدواتهم[١٠]، والاهانة والاستهزاء بالذين يعانون من الشدائد[١١]، والوحدة والاهمال[١٢]، وايضاً لدى وخز الضمير[١٣]، وصعوبة تفهّم اسباب ازدهار الاشرار ومعاناة الابرار[١٤]، والخيانة ونكران الاصدقاء والأقرباء الجميل[١٥]

٨ - هذه كانت تجربة ابراهيم (راجع تك ١٥، ٢)، وراحيل (راجع تك ٣٠، ١)، وحنه، والدة صموئيل (راجع ١ صموئيل ١، ٦ - ١٠).

٩ - على ما تعرب عنه مراثي سبي بابل (راجع مز ١٣٧ [١٣٦]).

١٠ - هذا ما تعرّض له المرتّل، مثلاً (راجع مز ٢٢ [٢١]، ١٧ - ٢١) او ارميا (راجع ارميا ١٨، ١٨).

١١ - هذا ما حدث لأيّوب (راجع ايّوب ١٩، ١٨؛ ٣٠، ١، ٩)، ولبعض المرتّلين (راجع مز ٢٢ [٢١]، ٧ - ٩؛ ٤٢ [٤١]، ١١؛ ٤٤ [٤٣]، ١٦ - ١٧)، ولأرميا (راجع ارميا ٢٠، ٧)، وللخادم المتألّم (راجع اشعيا ٥٣، ٣).

١٢ - وهذا ما تألّم له بعض المرتّلين (راجع مز ٢٢ [٢١]، ٢ - ٣؛ ٣١ [٣٠]، ١٣؛ ٣٨ [٣٧]، ١٢؛ ٨٨ [٨٧]، ٩، ١٩)، ارميا (راجع ارميا ١٥، ١٧) او الخادم المتألّم (راجع اشعيا ٥٣، ٣).

١٣ - هذا ما عانى منه المرتّل (راجع مز ٥١ [٥٠]، ٥)، وشهود آلام الخادم (راجع اشعيا ٥٣، ٣ - ٦)، والنبي زكريّا (راجع زكريّا ١٢، ١٠).

١٤ - هذا ما تألّم منه المرتّل (راجع مز ٧٣ [٧٢]، ٣ - ١٤)، والجامعة (راجع الجامعة ٤، ١ - ٣).

١٥ - هذا ما عاناه ايّوب (راجع ايوب ١٩، ١٩)، وبعض المرتّلين (راجع مز ٤١ [٤٠]، ١٠؛ ٥٥ [٥٤]، ١٣ - ١٥)، وارميا (راجع ارميا ٢٠، ١٠)؛ وكان ابن سيراخ يتأمّل في هذا الشقاء (راجع سيراخ ٣٧، ١ - ٦).

واخيراً محن الوطن[١٦].

وينظر العهد القديم الى الانسان على انه «مركّب» من جسد وروح، وغالباً ما يجمع بين عذابات النفس «المعنوية»، والألم الناجم عن بعض اعضاء الجسد. كالعظام[١٧] مثلاً، والكلى[١٨]، والكبد[١٩]، والاحشاء[٢٠]، والقلب[٢١]. ولا يمكن الاّ التسليم بان العذابات المعنوية تنعكس على الناحية الطبيعية او البدنية، وغالباً ما تمتدّ الى مجمل كيان الانسان.

٧. ان الكتاب المقدّس، على ما تشير اليه الامثلة الآنفة، يقدّم لائحة كبيرة عن حالات يقاسي فيها الانسان آلاماً متعدّدة. وهذه اللائحة، على تنوّعها، لا تستنفد، دونما شك، كل ما اعرب ويعرب عنه باستمرار

١٦ ـ ما عدا مقاطع عديدة من المراثي، انظر في شكاوى المرتّلين (راجع مز ٤٤ [٤٣]، ١٠ ـ ١٧؛ ٧٧ [٧٦]، ٣ ـ ١١؛ ٧٩ [٧٨]، ١١؛ ٨٩ [٨٨]، ٥١) او الأنبياء (راجع اشعيا ٢٢، ٤؛ ارميا ٤، ٨؛ ١٣، ١٧؛ ١٤، ١٧ ـ ١٨؛ حزقيال ٩، ٨؛ ٢١، ١١ ـ ١٢)؛ انظر ايضاً صلوات عازريا (راجع دانيال ٣، ٣١ ـ ٤٠) ودانيال (راجع دانيال ٩، ١٦ ـ ١٩).

١٧ ـ راجع مثلاً اشعيا ٣٨، ١٣؛ ارميا ٢٣، ٩؛ مز ٣١ [٣٠]، ١٠ ـ ١١؛ مز ٤٢ [٤١]، ١٠ ـ ١١

١٨ ـ راجع مثلاً مز ٧٣ [٧٢]، ٢١؛ ايّوب ١٦، ١٣؛ مراثي ٣، ١٣

١٩ ـ راجع مراثي ٢، ١١

٢٠ ـ راجع اشعيا ١٦، ١١؛ ارميا ٤، ١٩؛ ايّوب ٣٠، ٢٧؛ مراثي ١، ٢٠

٢١ ـ راجع ١ صموئيل ١، ٨؛ ارميا ٤، ١٩؛ ٨، ١٨؛ مراثي ١، ٢٠ ـ ٢٢؛ مز ٣٨ [٣٧]، ٩ و ١١

كتاب تاريخ الانسان (وهو بالاحرى «كتاب غير مكتوب») بشأن الألم، ولا سيّما كتاب تاريخ الجنس البشري، اذا ما نُظر في حالة كل من الناس.

ويمكن التأكيد ان الانسان يتألّم، كلّما احسّ بشرّ ايّاً يكن نوعه. والعلاقة بين الألم والشرّ، بحسب لغة الكتاب المقدّس، هي من الوثاقة بحيث يعنيان بوضـوح شيئاً واحـداً. وكانت لغـة الكتاب تفتقـر الى لفظة خـاصـة للاعراب عن «الألم». ولهذا ان كل ما يؤلّم الانسان يدعوه الكتاب «شرّا»[٢٢]. واللغة اليونانية وحدها، والعهد الجديد معها، (وترجمات العهد القديم اليونانية)، تستعمل لفظة πάσχω ، ومعناها: اعاني من. . . ، اشعر، أتألّم، ولهذا فان الألم، من خلال هذه اللفظة، لا يعني ما يعنيه الشرّ (الموضوعي)، بل يشير الى حالة يقاسي فيها الانسان شرّاً

٢٢ ـ من المفيد التذكير بأن الجذر العبراني: רַע، רָע (راع)، يشير، عـلى وجه الأجمال، الى ما هـو شرّ، في مقـابل مـا هو خـير טוֹב (طوب)، دونما تمييز بين المعنى الطبيعي، والنفساني، والأدبي. ونجـده في الصيغـة الأسميّـة רָעָה، רַע (راعْ) و (راعَهْ) التي تدلّ، على السواء، على الشرّ بحدّ ذاته، او العمل السيّء، او من يقوم به. وفي الصيغ الفعليّة نجد ايضاً، بالاضافة الى الصيغة المجرّدة، פָּעַל(קַל (قَلْ، فَعَل) التي تدلّ، بطريقة مختلفـة، على «مـا هو شـرّ»، الصيغة المنعكسـة ـ الأنفعـاليـة، נִפְעַל (نِفْعَل)، ويقابلها بالعربية انفعل، «قاسى الشر»، «حلّ به الشر» والصيغة السببيّة הִפְעִיל (هِفْعِيل) ويقابلها بالعربية أفعل، «صنع»، «أنزل الشرّ» باحدهم. ولما كانت اللغة العبرية تفتقر الى اللفظة اليونانيـة المقابلة لصيغـة πάσχω ، (پاسيو)، «أتألم»، لذلك فهي قلّما ترد في النسخة السبعينيّة.

ويسبب هذه المقاساة، يتألّم. ولهذا الألم طابعان: فعالي وانفعالي (من المقاساة) وحتى لو انزل الانسان بنفسه المأ، وكان هو السبب، فيبقى هذا الألم شيئاً انفعالياً وفقاً لجوهره الماورائي.

ولكن لا ينتج عن ذلك انه ليس للعذاب النفساني بحد ذاته أيّة «فاعلية خاصة». ان هناك «فاعلية» متعدّدة، ومتميّزة ذاتياً، للألم، والحزن، وخيبة الأمل، وخور العزيمة، وحتى لليأس، وفقاً لحدّة التأثّر او خفّته او عمق امتداد جذوره، او، جانبياً، وفقاً لبنية من يتألّم ودرجة شعوره. ولهذا فان هناك دائماً، في كل شكل من اشكال العذاب النفساني، معاناة من شرّ يتألم له الانسان.

فلا عجب اذن، اذا قاد العذاب الى طرح السؤال عن طبيعة الشرّ. فما هو الشرّ؟ يبدو انه لا يمكن، نوعاً ما، فصل هذا السؤال عن موضوع العذاب. ويختلف الجواب المسيحي عن ذاك الذي تعطيه بعض تقاليد ثقافية ودينية ترى ان الوجود البشري شرّ يجب التخلّص منه. امّا الدين المسيحي فيعترف بأن الوجود خير جوهري وان كل كائن هو خير، وينادي بجودة الخالق وبأن الخلائق كلها خير. ويتألّم الانسان بسبب الشرّ الذي هو نقص او انتفاء للخير. او قل ان الانسان يتألّم لأنه لم يدرك نصيبه من خير حرمه او حرم نفسَه اياه. وهو يتألّم - في مجرى الامور المألوف - بقدر ما كان «يجب» ان يدرك نصيبه من هذا الخير، لكنه لم يدركه في الواقع.

ولهذا ان حقيقة الألم، في المفهوم المسيحي، تتوضّح

بواسطة الشرّ الذي هو مشدود دائماً، نوعاً، ما، الى الخير.

٨. فيجب النظر اذن الى الألم البشري على انه شبه «عالم» خاص، وجد منذ ان وجد الانسان، وهو يظهر معه ويزول، واحياناً لا يزول، ولكنه يترسّخ فيه ويتأصّل. وعالم الألم هذا، اذ يلفّ عدداً من الناس، لا بل عدداً كبيراً وكلّاً بمفرده، انما هو اشبه بأمر شتات. ويشكّل كل انسان بألمه الخاص به، لا جزءاً صغيراً من هذا «العالم»، وحسب، بل ان هذا «العالم» يقيم فيه وكأنه شيء محدّد لا مثيل له. وتصاحب ذلك علاقة اخرى اجتماعية بين الناس؛ ذلك ان عالم الألم يؤلّف مجموعة خاصة. والمتألّمون يصبحون متشابهين لما في الحالة التي يتقلّبون فيها من وجوه شبه، ولما يخضعون له من امتحان مصيري، ولما يشعرون به من توق الى رعاية وعناية، ولربما على الاخص، لتساؤلهم المستمرّ عن معنى الألم. ولهذا، ورغم ان عالم الألم هو أمر شتات، فهو في الوقت عينه دعوة فريدة الى الالفة والتضامن. وسنبذل الجهد لكي نضع امام اعيننا هذه الدعوة ونحن نعرض هذه الخواطر.

وانّا، اذ نستعرض عالم الألم، سواء أكان بمعناه الشخصي ام في الوقت عينه بمعناه الجماعي، نرى انه يشتدّ وطأة في بعض الاحيان وفي بعض مراحل الحياة الانسانية، مثلاً لدى حلول النكبات الطبيعية، والأوبئة، والكوارث والزلازل، ومختلف الآفات الاجتماعية من فشل

موسم قاحل وما يجرّه معه ـ اذا لم يكن ذلك ناشئاً عن اسباب اخرى ـ من مجاعة حادّة، محزنة.

وتمثل الحرب اخيراً امام الاذهان، وهذا ما نريد ان نتحدّث عنه بوجه أخصّ، فنتوقّف على الحربين الاخيرتين اللتين اصابتا العالم؛ وقد حصدت الثانية منهما عدداً أضخم من الناس وتسبّبت بقدر أكبر من الآلام البشرية. وبالمقابل ان النصف الثاني من عصرنا ـ بسبب اخطاء حضارة اليوم وتجاوزاتها ـ يحمل معه بذور حرب نووية مريعة، بحيث اننا لا نستطيع، اذا ما نظرنا الى هذه الحقبة، الاّ ان نفكّر، في الوقت عينه، بما سيتراكم من آلام لا مثيل لها، ممّا قد يحمل البشرية على ابادة ذاتها بذاتها. ولهذا يبدو ان عالم الألم هذا الذي يتّخذ، على وجه التأكيد، مكمناً له في كل من الناس، قد ينقلب في عصرنا، اكثر منه في غابر الازمان، «عالم ألم فريد»؛ وهو عالم تحوّل، اكثر من ذي قبل، بفضل تقدّم الانسان، وبلغ، في الوقت عينه، اكثر من اي وقت مضى، ذروة الخطر، من جرّاء اخطاء الانسان ومساوئه.

٣

بحث عن الجواب على السؤال عن معنى الألم

٩. أمام كل ألم يعاني منه أي انسان، وكذلك امام عالم الألم بكامله، لا بدّ من طرح هذا السؤال: لماذا؟ انه سؤال عن السبب، وعن المبرّر، وفي الوقت عينه عن الغاية، (لاي شيء)، وعلى الجملة، عن المعنى. وهو سؤال لا يقترن بالألم البشري وحسب، لكنه يبدو انه يحدّد محتواه البشري، اعني ما به يكون الألم، على وجه التأكيد، بشرياً.

واضح ان الألم، ولا سيّما ألم الجسد، يصيب، دونما ريب، الحيوانات من قريب او بعيد، لكن الانسان وحده، المصاب بالألم، يعرف انه يتألّم، ويبحث عن السبب. وهو يتألّم بشرياً، بطريقة اشدّ، ان لم يهتدِ الى جواب مقبول. وهذا سؤال صعب، شأن امثاله من الاسئلة التي تتعلّق بالشرّ. لماذا الشرّ؟ لماذا الشرّ في العالم؟ وعندما نستقصي هكذا، فانّا نتساءل، على الأقل بطريقة ما، عن الألم.

وكلا السؤالين صعب، عندما يطرحهما الانسان على الانسان، والناس على الناس، ولكن ايضاً عندما يطرحهما الانسان على الله. ولكن الانسان لا يستقصي هذه المسألة لدى العالم، رغم انه غالباً ما يتألّم من العالم، بل لدى الله، بما انه مكوّن العالم وربّـه. ومعلوم ان الناس في تساؤلهم هذا لا يصلون، بشتى الطرق، الى مبتغاهم، ولا الى مخاصمة الله وحسب، بل الى التجرّوء حتى على نكران الله. واذا كان وجود العالم يفتح، اذا صحّ التعبير، بصيرة الانسان على وجود الله وحكمته، وقدرته، وعظمته، فيبدو ان الشرّ والألم يغشّيان احياناً هذه الصورة تماماً، وذلك على الأخص، عندما تقع احداث يومية خطيرة مؤلمة، دونما ذنب؛ وترتكب ذنوب كثيرة تبقى دون ما تستوجب من عقاب. وهذا بالتالي ما يظهر ـ ربما اكثر من سواه ـ كم هو هام السؤال عن معنى الألم، وبـأيّة دقّـة تجب معالجة هذا السؤال وما يجب اعطاؤه من جواب عليه.

١٠. بـاستـطاعـة الانسـان ان يسـائـل الله عن هـذا الامر، وهو مضطرب الخاطر، ذاهل العقل، قلق البال. وينتظر الله السؤال ويستمع اليه، على ما نرى في وحي العهد القديم. وقد اوضح سفر ايوب هذا السؤال ايضاحاً تامّاً.

انها معروفة قصة هذا الرجل الصديق الذي نالته آلام كثيرة لا تحصى دونما ذنب منه. وقد فقـد ارزاقه وامواله وابناءه وبناته، واصيب هو عينـه اخيراً بمـرض عضال. وفيما هو يعاني ما يعاني في هذه الحالة القاسية، أتاه ثلاثة من اصدقـائه القـدامى، واخذوا ـ كـل على

طريقته ـ يعملون على اقناعه بأنه قد ارتكب اثماً كبيراً، ما دامت قد حلّت به آلام عديدة مبرّحة؛ ذلك ان الألم، على ما قالوا، يحلّ دائماً بالانسان عقاباً له على اثم ارتكبه. والله العادل هو من ينزله به، وسببه ما تأمر به العدالة. ويمكن القول ان هؤلاء الاصدقاء ارادوا، لا ان يقنعوا ايوب بأن الشرّ عادل ادبياً وحسب، لكنهم سعوا، نوعاً ما، الى الدفاع امام انفسهم عن معنى الألم الأدبي. لقد ظنّوا ان لا سبيل الى فهم الألم الاّ انه عقاب على الخطيئة؛ وذلك فقط ضمن نطاق عدالة الله الذي يجازي خيراً بخير، ويعاقب شرّاً بشرّ.

وقد استندوا، في هذه الحالة، الى عقيدة اثبتتها اسفار العهد القديم، وهي تظهر ان الله ينزل العقاب بسبب الخطايا. ذلك ان اله الوحي انما هو مشترع وقاضٍ، وما من سلطة بشريّة يمكنها ان تماثله. واله الوحي هو، قبل كلٍّ، الخالق الذي اتى منه، مع الوجود، خير الخلق الجوهري. وانتهاك الانسان لحرمة هذا الخير انتهاكاً واعياً، حرّاً ليس هو خرقاً للقانون وحسب، بل هو اهانة لله الذي هو مبدع الشريعة. ويرتدي هذا الخرق طابع الخطيئة بالمعنى الصحيح، اي الكتابي واللاهوتي لهذه الكلمة. ويستتبع شرٌّ الخطيئة الادبي العقابُ الذي من شأنه ان يحمي النظام الادبي وفقاً لهذا المعنى التجريدي عينه الذي، انطلاقاً منه، اقام الخالق، المشترع الاسمى، هذا النظام، بارادته. ومن هنا تنبع احدى حقائق الايمان الديني الاساسيّة، المستندة الى الوحي، وهي ان الله قاضٍ عادل يجازي على الخير، ويعاقب

على الشرّ: «لأنك عادل في جميع ما صنعت واعمالك كلها صدق، وطرقك استقامة، وجميع احكامك حق. وقد اجريت احكام حق في جميع ما جلبت علينا. . . لأنك بالحق والحكم جلبت جميع ذلك لاجل خطايانا»[٢٣].

لقد اظهر رأي اصدقاء ايوب زعماً غالباً ما نجده في ضمير البشريّة الادبي، وهو ان النظام الادبي الموضوعي يتطلّب قصاصاً على المخالفة، وعلى الخطيئة، وعلى الذنب. من هنا يبدو ان الألم «شرّ له ما يبرّره قانوناً». ويستند زعم الذين يفسّرون الألم بأنه قصاص على الخطيئة، الى نظام العدالة، ويلتقي هذا الرأي والرأي الذي ابداه احد اصدقاء ايوب بقوله: «بل رأيت ان الذين يحرثون الأثم ويزرعون المشقّة هم يحصدونها»[٢٤].

١١. لكن ايوب ينفي صحّة هذا المبدأ القائل بأن الألم عقاب على الخطيئة. وهو يؤكّد ذلك بالاستناد الى ما رسخ في اعتقاده، لأنه يعرف حق المعرفة انه لم يستأهل مثل هذا العقاب، لا بل انه يعلن انه قد صنع الخير في حياته. وقد أنّب الله عينه في النهاية اعداء ايوب على اتّهامهم اياه، واعترف بأن ايوب لم يكن مذنباً، وان آلامه هي آلام بريء يجب التسليم بها على انها سرّ لا يستطيع الانسان النفاذ اليه ببصيرته.

٢٣ ـ دانيال ٣، ٢٧ ـ ٢٨؛ راجع مز ١٩ [١٨]، ١٠؛ ٣٦ [٣٥]، ٧؛ ٤٨ [٤٧]، ١٢؛ ٥١ [٥٠]، ٦؛ ٩٩ [٩٨]، ٤؛ ١١٩ [١١٨]، ٧٥؛ ملاخيا ٣، ١٦ ـ ٢١؛ متّى ٢٠، ١٦؛ مر ١٠، ٣١؛ لو ١٧، ٣٤؛ يو ٥، ٣٠؛ روم ٢، ٢

٢٤ ـ ايّوب ٤، ٨

ولا يتصدّى سفر ايوب لقواعد النظام الادبي السامي، القائم على العدالة، وهي القواعد التي يعرضها الوحي بكامله في العهدين القديم والجديد. لكن هذا السفر ينبّه في الوقت عينه تنبيهاً جازماً الى استحالة تطبيق مبادىء هذا النظام تطبيقاً حصريّاً، ضيّقاً، سطحيّاً. فاذا صحّ ان للألم معنى القصاص، عندما يقترن القصاص بالذنب، فليس صحيحاً ان كل ألم ينشأ عن الذنب وان له طابع القصاص. وايوب الصديق هو خير برهان على ذلك في العهد القديم. ويطرح الوحي الذي هو كلام الله، بوضوح، مسألة ألم البريء، الألم دونما ذنب. ان ايوب لم يقاصّ، ولم يكن هناك من اسباب توجب انزال القصاص به، رغم انه قد امتُحن امتحاناً قاسياً. ويبدو من مقدّمة السفر ان الله قد سمح بامتحان هذا الرجل، بناء على تحريض الشيطان الذي وضع برّ ايوب امام الرب موضع الشكّ والاتّهام: «امجّاناً يتّقي ايوب الله؟... قد باركت اعمال يديه فانتشرت امواله في الارض. ولكن ابسط يدك وامسس جميع ما له فتنظر ألا يجدّف عليك في وجهك؟»(٢٥). واذا كان قد رضي الرب بأن يُجرَّب ايوب ويُمتَحن بالألم، فقد صنع ذلك ليظهر برّه. ان للألم طابع امتحان.

ولا يقول سفر ايوب قول الوحي الفصل في هذه المسألة. وهو ينبىء، نوعاً ما، بآلام المسيح؛ لكنه برهان، بحدّ ذاته، كافٍ على ان الجواب على السؤال عن معنى

٢٥ ـ ايّوب ١، ٩ ـ ١١

الألم لا يرتبط دونما استثناء بالنظام الادبي القائم على العدالة وحدها. واذا كان لهذا الجواب ما يبرّره، وله قيمة اساسية، فيبدو، من جهة ثانية، انه لا يشكّل برهاناً كافياً في حالات مماثلة لألم ايوب وحسب، لكنه، فضلاً عن ذلك، يفقر مفهوم العدالة ويفرغه من محتواه، على نحو ما نجده في الوحي.

١٢. يطرح سفر ايوب «قضيّة» الألم طرحاً «حادّاً»، ويظهر كذلك ان البريء يتألّم، لكنه لم يحلّ القضيّة.

ونلاحظ ايضاً ميلاً في العهد القديم الى تخطّي الرأي القائل بأن لا تفسير للألم الّا انه قصاص على الخطيئة، فيما ينجلي، بوضوح، في الوقت عينه، ما في الألم من فائدة ترمي الى التأديب. ذلك ان في الآلام التي ينزلها الله بالشعب المختار ما يحفز رحمته على الاصلاح بغية الحمل على الارتداد: «وهذه النقم ليست للهلاك بل لتأديب امتنا»[٢٦].

وهكذا يتأكّد سبب القصاص الشخصي. وان للقصاص، بموجب هذا السبب، معنى، لا لأنه يقابل شرّ المخالفة الموضوعي بشرّ آخر، بل لأنه يمكّن على الأخص من اعادة بناء الخير في من يتألّم.

وان هذا الجانب من الألم لبالغ الاهمية، وهو متأصّل تأصّلاً عميقاً في الوحي بمجمله، القديم منه والجديد خاصة. ذلك ان الألم يجب ان يقود الى الارتداد، اي

٢٦ - راجع ٢ مكابيين ٦، ١٢

اعادة بناء الخير في الانسان الذي يمكنه ان يتعرّف الى رحمة الله في هذه الدعوة الى التوبة. وغاية التوبة التغلّب على الشرّ القابع في الانسان باشكال مختلفة، وتوطيد الخير في الانسان وفي علاقاته مع الآخرين، وعلى الأخصّ مع الله.

١٣. لكن لكي نهتدي الى الجواب الحقيقي الواجب اعطاؤه على السؤال المتعلّق «بقضيّة» الألم، علينا ان ننظر الى وحي المحبة الالهية التي هي الينبوع الأخير لمعنى كل الكائنات. والمحبة هي ايضاً الينبوع الفيّاض لمعنى الألم الذي يبقى دائماً سرّاً. ونحن نعرف ان شروحنا لا تفي بالموضوع وتبقى دونه. والمسيح هو من يدخلنا في السرّ ويحملنا على اكتشاف «قضيّة» الألم، على قدر ما نستطيع ان نتفهّم سموّ المحبة الالهية.

ولكي نكتشف مجدّداً معنى الألم العميق، ونحن نتتبّع الكلمة التي اوحاها الله، يجب ان ننفتح على الانسان المتألم، مع اخذ مختلف قواه بالاعتبار. وعلينا خاصّة ان نقبل نور الوحي، لا لأنه يعبّر عن نظام العدالة السامي وحسب، بل لأن هذا النور يضيء هذا النظام بالمحبة التي هي الينبوع الأكيد الاسمى لكل الكائنات. اجل ان المحبة هي اكمل ينبوع للجواب على السؤال عن معنى الألم. وهذا الجواب قد اعطاه الله للانسان في صليب يسوع المسيح.

٤

يسوع المسيح:
الألم الذي غلبته المحبة.

١٤. «ان الله هكـذا احبّ العـالم حتى انـه بـذل ابنه الوحيد، كي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الابدية»[٢٧]. هذه الكلمات التي فاه بها السيد المسيح، فيما كان يحدّث نيقوديموس، تدخلنا في صميم العمل الخلاصي. وهي تعلن عن جوهر عقيدة الفداء المسيحية، اي لاهوت الخلاص. والخلاص معناه التحرير من الشرّ، وهو بالتالي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمسألة الألم. وان الله، وفقاً للكلام الموجّه الى نيقوديمس، قد بذل ابنه في سبيل «العالم»، ليحرّر الانسان من الشرّ الذي يتضمّن في ذاته مبرّر الألم الاخير، المطلق. وتشير، في الوقت عينه، لفظة «بذل» الى وجوب تحقيق هذا التحرير بواسطة الابن الوحيد، عبر آلامه. وفي هذا تتجلّى محبة الابن الوحيد، غير المتناهية، ومحبة الآب الذي «بذل»،

٢٧ ـ يو ٣، ١٦

لهذا السبب، ابنه. وهذه المحبة للانسان، والمحبة «للعالم»، هي المحبة الخلاصية.

وندخل هنا في جانب جديد من موضوعنا. وهذا ما يجب ان نضعه، بوضوح، امام الاذهان منّا، ونحن نعالج معاً هذا الموضوع. وهذا الجانب هو غير ذاك الذي حدّد البحث في معنى الألم وحصره، نوعاً ما، ضمن حدود العدالة. انه جانب الفداء الذي يبدو ان كلام ايوب الصديق، على ما ورد في العهد القديم على الاقلّ، في الطبعة الدارجة، قد تنبّأ عنه: «اني لعالم بأن فاديّ حيّ وسيقوم... ومن جسدي اعاين الله»[28]. واذا كان قد اتّجه تفكيرنا حتى الآن، وقبل كلّ، الى الألم، نوعاً ما، في صيغته الزمنيّة المتعدّدة (وآلام ايوب الصديق هي من هذا النوع)، فان الكلام المشار اليه سابقاً والمقتطف من حديث يسوع الى نيقوديموس، ينظر في الألم بمعناه الرئيسي والنهائي. لأن الله يبذل ابنه الوحيد، «لكيلا يهلك» الانسان. وقد حدّد قوّة هذه الكلمة «لكيلا يهلك» على وجه الدقّة، ما تبعها وهو «بل تكون له الحياة».

«ويموت» الانسان، عندما «يفقد الحياة الابدية». ولا يتعارض مع الخلاص الألم الزمني، ايّاً يكن هذا الألم، بل الألم الأكيد، الثابت، الذي لا يتغيّر، اي فقدان الحياة الأبدية، ورفض الله الانسان، والهلاك. لقد «بُذل» الابن الوحيد من اجل الناس ليدفع عن الانسان خاصة هذا

٢٨ - ايّوب ١٩، ٢٥ - ٢٦

الشرّ، اي الألم الأكيد، الثابت، الذي لا يتغيّر. فعليه اذن، انطلاقاً من رسالته الخلاصيّة، ان ينفذ الى اعماق جذور الألم التي ينتشر منها هذا الألم في تاريخ البشر. وجذور الألم العميقة هذه، متأصّلة في الخطيئة والموت. وهي في اساس فقدان الحياة الابدية. وتقوم رسالة الابن الوحيد على التغلّب على الخطيئة والموت. وقد تغلّب على الخطيئة بطاعته حتى الموت، وتغلّب على الموت بقيامته.

١٥. عندما يقال ان المسيح قد نفذ برسالته من الشرّ الى جذوره، نفكّر لا بالشرّ والألم الاكيد، الثابت الذي لا يتغيّر، الأخروي (لكيلا «يهلك الانسان، بل تكون له الحياة الابدية»)، وحسب، بل ايضاً ـ على الاقلّ جانبيّاً ـ بالشرّ والألم بمفهومه الزمني والتاريخي. لأن الشرّ مرتبط بالخطيئة والموت. ورغم انه يجب الحكم، بفطنة بالغة، على الألم البشري كأنه نتيجة لخطايا ملموسة (هذا ما يوحي به مثل ايوب الصديق)، فلا يمكن فصله عن الخطيئة الاصليّة، اي عن تلك التي يدعوها القديس يوحنا «خطيئة العالم»[٢٩]، عن الحالة الاثميّة، حالة الاعمال الشخصية والتطوّرات الاجتماعية في تاريخ الانسان. ورغم انه لا يجوز هنا تطبيق قاعدة الارتباط المباشر الضيّقة (على ما فعل اصدقاء ايوب الثلاثة)، فلا يجوز التخلّي عن القول بان آلام البشر تنبع من انواع الانغماس في الخطيئة.

وهذا ما يحدث بشأن الموت. وهو غالباً ما يُنتظر على

٢٩ ـ يو ١، ٢٩

انه خلاص من آلام هذه الحياة. ولكن لا يمكن ان يخفى على أحد، في الوقت عينه، انه يشكّل خاتمة نهائية لعمل الآلام المميت، سواء أكان في الجسد واجهزتـه، ام في النفس. ويحمل الموت معه، قبل كلّ، تفكيك شخصية الانسان النفسية والجسدية بكاملها. وتبقى النفس مستمرّة في الوجود منفصلة عن الجسد. امّا الجسد فيخضع شيئاً فشيئاً للانحلال، وفقاً لكلام الرب الاله الذي فاه به بعد ارتكاب الانسان الخطيئة، في بدء تاريخه الارضي: «انك تراب، والى التراب تعـود»[٣٠]. ولهذا، بـالرغم من ان الموت ليس ألماً، بمـا للكلمة من معنى زمني، ولـو انه يفوق، نوعاً ما، جميع الآلام، فالشرّ الذي يختبره الانسان فيه يحمل طابع أمر نهائي يشمل كل شيء. ان الابن الوحيد يحرّر الانسان، بعمله الخـلاصي، من الخطيئـة والموت. لقد ازال، بداءة بدء، من تاريخ البشر سلطان الخطيئة التي مدّت جذورها، باغواء من الروح الشرّير، منذ الخطيئة الاصليّة، ووهب الانسان القدرة على العيش في النعمة المبرّرة. وبعد الانتصار على الخطيئـة، قضى ايضاً على سلطان الموت، وفتح بقيامته الطريق لقيامـة الاجسـاد العتيدة. وكـلا الأمرين لا بـدّ منهما «للحيـاة الابدية»، اعني لسعـادة الانسان المتّحـد بالله، التي لا تتغيّر. وهذا يعني بالنسبة الى المخلّصين ان الألم قد زال تماماً، بالنظر الى الآخرة.

وبنتيجة عمل المسيح الخلاصي، يحيا الانسان على

٣٠ ـ تكوين ٣، ١٩

الارض، على رجاء الحياة والقداسة الابديّتين. وبالرغم من ان الانتصار الذي حقّقه المسيح على الخطيئة والموت، بصليبه وقيامته، لا يزيل الآلام الزمنية في حياة الانسان، ولا يحرّر من الآلام الحياة البشرية في مفهومها التاريخي الكامل، فهو يلقي على هذا المفهوم بكامله، وعلى كل ألم، نوراً جديداً، هو نور الخلاص. وهذا هو نور الانجيل، اي البشارة الصالحة. وفي وسط هذا النور، نجد الحقيقة التي ظهرت في الحديث مع نيقوديموس: «ان الله هكذا احب العالم حتى انه بذل ابنه الوحيد»[٣١]. وهذه الحقيقة تغيّر من الاساس تاريخ الانسان واوضاعه الارضيّة: رغم وجود الخطيئة التي تأصّلت في هذا التاريخ، سواء أكانت ارثاً اصليّاً، ام «خطيئة العالم»، ام مجموعة خطايا شخصية، قد أحبّ الله الآب ابنه الوحيد، اعني انه يحبه دائماً، ثم «بذل» هذا الابن، في الزمن، بسبب هذه المحبة التي تتغلّب على كل شيء، لكي ينفذ الى اصل الشرّ البشري، ويصل، هكذا بطريقة خلاصية، الى عالم الألم بكامله الذي يشترك فيه الانسان.

١٦. لقد اقترب السيد المسيح باستمرار، لدى قيامه بعمله الرسولي في جانب الشعب الاسرائيلي، من عالم الألم البشري. «فمرّ وهو يصنع الخير»[٣٢]. وقد وجّه عمله هذا، قبل كلّ، الى المرضى والمحتاجين الى المساعدة. فشفى المرضى، وعزّى الحزانى، واطعم

٣١ ـ يو ٣، ١٦
٣٢ ـ اعمال ١٠، ٣٨

الجياع، وانقذ الناس من الصمم والعمى، والبرص، والشيطان، ومختلف العاهات الجسدية، وردّ الحياة، ثلاثاً، الى موتى. وكان يتأثر لكل ألم بشري يصيب الجسد والنفس. وكان في الوقت عينه يعلّم ويركّز تعليمه على «الطوبى الثماني» الموجّهة الى من اصابتهم آلام مختلفة في الحياة الزمنيّة، وهم «المساكين بالروح، والحزانى، والجياع والعطاش الى البرّ، والمضطهدين من اجل البرّ»، والذين يلعنهم الناس ويضطهدونهم، ويتّهمونهم زوراً بارتكاب انواع الشرّ، من أجل المسيح...[٣٣]. هذا ما اورده متّى. امّا لوقا فيذكر صراحة «الجياع الآن»[٣٤].

وعلى كل حال، قد اقترب المسيح على الاخص من عالم الألم البشري بحيث انه أخذ هذا الألم. وهو، مدّة قيامه بنشاطه العام، لم يعان من التعب، والحاجة الى مسكن، واساءة اقرب الناس اليه فهمه وحسب، بل قد ضُرب، قبل كلّ، حوله نطاقٌ من الحقد اخذ يضيق مع الايام، وراحت تنكشف مع الايام ايضاً نيّات السوء الرامية الى ازالته من عالم الاحياء. وكان المسيح واعياً لهذا الأمر، وغالباً ما حدّث تلاميذه عمّا ينتظره من آلام وموت، فقال لهم: «ها نحن صاعدون الى اورشليم، وابن الانسان يسلّم الى عظماء الكهنة والكتبة، فيحكمون عليه بالموت، ويسلّمونه الى الامم، فيهزأون به،

٣٣ ـ راجع متّى ٥، ٣ ـ ١١
٣٤ ـ راجع لوقا ٦، ٢١

ويجلدونه، ويتفلون في وجهه، ويقتلونه، وفي اليوم الثالث يقوم»[٣٥].

ومضى السيد المسيح الى ملاقاة آلامه وموته، وهو واع كل الوعي، رسالته التي كان يجب ان تتمّ بهذه الطريقة. وكان عليه ان يعمل، بواسطة آلامه هذه، على الّا «يهلك الانسان، بل تكون له الحياة الابدية». وكان عليه ان ينزل بصليبه الى أصل الشرّ الكامن في تاريخ الانسان، ونفوس البشر. وكان لا بدّ من اتمام عمل الخلاص بصليبه، وهو العمل الذي يحمل، بموجب قصد المحبة الازلية، طابع الفداء.

ولهذا وبّخ السيد المسيح بطرس توبيخاً قاسياً، عندما سعى هذا الى اقناعه باطراح فكرة الألم والموت على الصليب[٣٦]. وعندما القي القبض عليه في بستان الجسمانية، وحاول بطرس عينه الدفاع عنه بالسيف، قال له المسيح: «ارجع سيفك الى غمده... فكيف اذاً تتمّ الكتب، بأنه يجب ان يصير هكذا؟»[٣٧]. ثم قال: «الكأس التي اعطانيها أبي، ألا اشربها؟»[٣٨]. ويظهر هذا الجواب ـ كغيره من الاجوبة التي وردت في مواضع مختلفة من الانجيل ـ كم كان المسيح متشبّعاً من هذه الفكرة التي أفصح عنها في حديثه الى نيقوديموس: «ان الله هكذا

٣٥ ـ مر ١٠، ٣٣ ـ ٣٤
٣٦ ـ راجع متّى ١٦، ٢٣
٣٧ ـ متّى ٢٦، ٥٢ و ٥٤
٣٨ ـ يو ١٨، ١١

احب العالم حتى انه بذل ابنه الوحيد، كي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الابدية»[٣٩]. ومشى المسيح ليقاسي آلامه، وهو مدرك قوتها الخلاصية، وتقدّم، عملاً بارادة ابيه، مشتركاً على الاخصّ مع ابيه في هذه المحبة التي احبّ بها الآب العالم والانسان في العالم. ولهذا كتب بولس عن المسيح: «احبّني وبذل نفسه دوني»[٤٠].

١٧ . كان لا بدّ من ان يتمّم الكتاب. وهناك مواضع مسيحانية كثيرة من العهد القديم سبقت فأعلنت آلام مسيح الرب الآتي. وان اشدّها تأثيراً في النفوس ما دعي بالنشيد الرابع لخادم يهوه الذي ورد في سفر اشعيا. ويعرض النبي الذي سمّي بحق «الانجيل الخامس» في هذا النشيد صورة آلام الخادم بالوان زاهية، حيّة حتى ليخيّل معها انه كان قد رآها رؤية العين: عين الجسد وعين العقل. وفي ضوء آيات اشعيا تظهر آلام المسيح اوضح تعبيراً واشدّ تأثيراً في النفوس منها في نصوص الانجيليين ذاتهم. واليكم رجل الألم الحقيقي على ما يبدو لنا امام العيون:

«لا صورة له ولا بهاء فننظر اليه . . .
مزدرى ومخذول من الناس،
رجل اوجاع، ومتمرّس بالعاهات،
كأنه مثل من نستر وجهنا عنه،

٣٩ - يو ٣، ١٦
٤٠ - غلا ٢، ٢٠

مزدرى، فلم نعبأ به.
انه لقد اخذ عاهاتنا،
وحمل اوجاعنا.
فحسبناه ذا برص،
مضروباً من الله ومذلّلا.
جرح لأجل معاصينا،
وسحق لأجل آثامنا.
فتأديب سلامنا عليه،
وبشدخه شفينا.
كلّنا ضللنا كالغنم،
كل واحد مال الى طريقه،
فألقى الرب عليه اثم كلّنا»[41].

وينطوي نشيد الخادم المتألّم على وصف يمكننا ان نرى فيه، الى حدّ ما، مراحل آلام المسيح في دقائقها: القاء القبض، والأذلال، والصفع، والتفل، وامتهان كرامة السجين، والحكم الظالم، واخيراً الجلد، واكليل الشوك الموضوع على رأسه، والهزء، ودرب الصليب، والصلب، والنزاع.

وان ما يؤثّر في النفوس من كلام النبي أكثر من وصف هذه الآلام، انما هو عمق ذبيحة المسيح. وهوذا، رغم انه بريء، يتقبّل جميع آلام الناس لأنه يأخذ على عاتقه جميع الخطايا: «فالقى الرب عليه اثم كلّنا»: كل اثم الانسان بسعته وعمقه، اصبح السبب الحقيقي لألم

٤١ - اشعيا ٥٣، ٢ - ٦

الفادي. واذا «قيس» الألم بقياس الشرّ المتحمَّل، فان كلام النبي يفسح في المجال لنفهم عظم هذا الشرّ، وهذا الألم الذي تحمّله المسيح. ويمكن القول هنا ان الألم هو ألم «بالوكالة»، ولكنه قبل كلّ «ألم فادٍ». ان رجل الآلام في هذه النبوّة، هو في الحقيقة، «حمل الله الحامل خطايا العالم»[٤٢]. وبآلامه أزيلت الخطايا، لأنه هو وحده، بما انه الابن الوحيد، استطاع ان يأخذها على عاتقه ويحملها بهذه المحبة التي خصّ بها الآب، والتي تغلب شرّ ايّة خطيئة. لقد قضى، نوعاً ما، على هذا الشرّ في ما للعلاقات بين الله والبشر من شبه مدى روحي، وملأ هذا المدى صلاحاً.

ونبلغ هنا ثنائية طبيعة الشخص الذي تحمّل الألم الفادي. انه هو من يصنع الفداء بآلامه وموته على الصليب، الابن الوحيد، الذي «بذله» الله. وفي الوقت عينه ان هذا الابن، المساوي للآب في الجوهر، يتألّم كانسان. ذلك ان لألمه مفهوماً بشرياً وله ايضاً - مرّة واحدة في تاريخ البشر - من العمق والقوّة ما يجعله - رغم كونه بشرياً - فوق كل مقابلة مع ايّ ألم سواه، من حيث العمق والقسوة، لأن الانسان المتألّم كشخص هو ابن الله الوحيد: «اله من اله». ولهذا انه هو وحده، ألابن الوحيد، من يستطيع ان يلفّ الشرّ، على مداه، هذا الشرّ القابع في خطيئة الانسان: في كل خطيئة، وفي الخطيئة «الشاملة»، وفقاً لمفهوم حياة البشر التاريخية على الارض.

٤٢ - يو ١، ٢٩

١٨ . يمكن القول ان الافكار التي عرضناها سابقاً تقود رأساً الى بستان الجسمانية، والى الجلجلة حيث تمّ نشيد الخادم المتألم، على ما ورد في سفر اشعيا. ولكن قبل ان نذهب قدماً، لنتلُ من النشيد الآيات التالية التي تنبىء انباء نبوياً عن آلام الجسمانية والجلجلة. وقد أخذ الخادم المتألّم طوعاً واختياراً - وهذا ايضاً لا بدّ منه لعرض آلام المسيح عرضاً صحيحاً - على عاتقه هذه الآلام التي أشرنا اليها:

«قدّم وهو خاضع،
ولم يفتح فاه،
كشاة سيق الى الذبح،
وكحمل صامت امام الذين يجزّونه،
ولم يفتح فاه.
من الضيق والقضاء أُخذ.
من جيله من اهتمّ؟
لأنه انقطع من ارض الاحياء؛
ولأجل معصية شعبه اصابته الضربة.
منح قبراً مع المنافقين،
وجدثاً مع الاغنياء،
لأنه لم يصنع جوراً
ولم يوجد في فمه مكر»[٤٣].

يتألّم المسيح طوعاً، ويتألّم بريئاً. ويتقبّل بألمه هذا السؤال - غالباً ما يطرحه الناس - الذي اعلن عنه بطريقة

٤٣ - اشعيا ٥٣، ٧ - ٩

حازمة في كتاب ايوب. لكن المسيح لا يحمل معه السؤال عينه وحسب، (وهذا ما يفعله بطريقة اكثر حزماً، لأنه، اذا كان انساناً كأيّوب، فهو ايضاً ابن الله الوحيد)، بل يحمل ايضاً اكمل جواب يمكن اعطاؤه عن هذا السؤال. وقل ان الجواب يخرج، على حدّ ما، من المعدن الذي صيغ منه السؤال. ذلك ان السيد المسيح يجيب على السؤال عن الألم ومعنى الألم لا بتعليمه وحسب، اي بالبشارة الصالحة، انما، على الاخصّ، بألمه الذي ينغرس انغراساً عضويّاً لا ينفصم في تعليم هذه البشارة الصالحة. وبعد فهذه هي الكلمة الاخيرة، الموجزة، عن هذا التعليم: «كلمة... الصليب»، على ما قال القديس بولس[٤٤].

و«كلمة الصليب» هذه تضفي على صورة النبوّة القديمة حقيقة ابدية. وهناك مواضع كثيرة، وخطب عديدة تشهد، طوال مدّة تعليم السيد المسيح العلني، كيف انه يقبل، منذ البدء، هذه الآلام، التي هي ارادة الآب من اجل خلاص العالم. ويبدو ان الخطوة الاخيرة هنا هي الصلاة في بستان الجسمانية وقد هتف فيها قائلاً: «يا ابتاه، ان كان يستطاع ان تعبر هذي الكأس عنّي. ولكن لا كما اشاء، بل كما تشاء»[٤٥]. ثم قال: «يا ابتاه، ان كان لا يستطاع ان تعبر هذي الكأس دون ان اشربها، فليكن ما تشاء»[٤٦]. وفي هذا الكلام كثير من البلاغة. انه

٤٤ ـ راجع ١ كور ١، ١٨
٤٥ ـ متّى ٢٦، ٣٩
٤٦ ـ متّى ٢٦، ٤٢

يثبت بطاعته حقيقة هذه المحبة التي يحيط بها الابن الوحيد الآب، ويشهد، في الوقت عينه، لحقيقة الألم. وكلام المسيح يثبت ببساطة تامّة حقيقة الألم البشري هذا كل الاثبات: والألم معناه تحمّل الشرّ الذي يرتعد الانسان فرقاً امامه، فيقول «لتعبر عني» كما قال المسيح في بستان الجسمانية.

وتؤكّد هذه العبارة، في وقت معاً، ما في الألم - الذي استطاع الانسان، الذي هو ابن الله وحده، ان يختبره - من عمق وقسوة لا مثيل لهما. وتؤكّد هذين العمق والعنف اللذين تساعد الكلمات النبويّة المشار اليها آنفاً بطريقتها على ان نتفهّمها. ولا يمكننا، طبعاً، ان نتفهّمها كل الفهم (وليتسنّى لنا ذلك، يجب ان ننفذ الى سرّ من تحمّل هذا الألم وهو سرّ الهي وبشري)، لكننا ندرك، على الاقل، الفرق (وفي الوقت عينه الشبه) الذي يمكنه ان يقوم بين كل ألم يقاسيه الانسان وعذاب الاله - الانسان. والجسمانية هي المكان الذي تجلّى فيه هذا الألم لبصيرة المسيح تجلّياً شبه نهائي، وفقاً للحقيقة التي اعلنها النبيّ عن الشرّ الكامن في الألم.

وبعد الكلام الذي تردّد في بستان الجسمانية، يأتي ذاك الذي قيل على الجلجلة، وهو يؤكّد عمق الألم الذي قاساه، وهو عمق فريد في تاريخ العالم. عندما صرخ المسيح قائلاً: «الهي، الهي، لماذا تركتني؟» لا يعرب قوله فقط عن هذا التخلّي الذي غالباً ما ورد ذكره في العهد القديم، وعلى الأخصّ في المزمور ٢٢ [٢١] الذي اقتطف

منه هذا القول[47]. لكن يمكن القول ان الاعراب عن هذا التخلّي ناجم عن حالة الاتحاد غير المنفصم بين الابن والآب، وانه ناجم لأن الآب «القى عليه اثم كلّنا»[48]، على غرار ما قال القديس بولس: «ذاك الذي لم يكن يعرف الخطيئة، جعله الله خطيئة لاجلنا، لنصير به برّ الله»[49]. وفي الوقت عينه، ومع هذا العبء المخيف، اختبر المسيح - وهو يقيّم «كلّ» الشرّ الكامن في الخطيئة والقائم على نبذ الله - ما في اتحاد الابن بالآب من عمق الهي، واختبر اختباراً لا يعبّر عنه بشرياً هذا الألم الذي هو انفصال عن الآب وطلاق معه وقطع الصلة به. لكنه، بواسطة هذا الألم، اتمّ الفداء واستطاع ان يقول وهو يلفظ انفاسه «لقد تمّ»[50].

يمكن القول ان الكتاب قد تمّ، وتحقّقت الى الابد كلمات نشيد الخادم المتألّم: «والرب رضي ان يسحقه بالعاهات»[51]. ان ألم الناس قد بلغ ذروته في آلام المسيح. وارتدت هذه الالام، في الوقت عينه، بعداً جديداً كل الجدّة، ودخلت في اطار جديد: فارتبطت بالمحبة، المحبة التي حدّث عنها السيد المسيح نيقوديموس، المحبة التي تولّد الخير، وتولّده، حتى من الشرّ، وتولّده بالألم، كما ان خير العالم الاسمى، خير افتداء البشر،

٤٧ - مز ٢٢ [٢١]، ٢
٤٨ - اشعيا ٥٣، ٦
٤٩ - ٢ كور ٥، ٢١
٥٠ - يو ١٩، ٣٠
٥١ - اشعيا ٥٣، ١٠

استخـرج من صليب المسيـح، ولا يـزال يفيض منـه باستمرار. فاصبح صليب المسيح الينبوع الذي تجري منه ماء الحياة[٥٢]. وعلينا ان نعود مجدداً فنلقي في الصليب السؤال عن معنى الألم، فنجد فيه الجواب النهائي عن هذا السؤال.

٥٢ ـ راجع يو ٧، ٣٧ ـ ٣٨

٥

مشاركون في آلام المسيح

١٩ . ان هذا النشيد، نشيد المتألّم، الذي اورده سفر اشعيا، يقودنا الى مثل هذين السؤال والجواب، عبر الآيات التالية:

«انه اذا جعل نفسه ذبيحة اثم،
يرى ذريّة، وتطول ايّامه،
ومرضاة الرب تنجح على يده.
لاجل عناء نفسه،
يرى النور ويشبع.
وبعلمه،
يبرّر الصديق، عبدي، كثيرين
وهو يحمل آثامهم.
فلذلك اجعل الكثيرين نصيباً له،
ويقتسم الغنائم والاعزاء،
لأنه افاض للموت نفسه
واحصي مع العصاة
وهو حمل خطايا كثيرين

وشفع في العصاة»[53].

ويمكن القول ان كل ألم بشري اصبح، مع آلام المسيح، في وضع جديد. ويبدو ان ايوب قد سبق فشعر بهذا الوضع، عندما قال: «اني لعالم بأنّ فاديّ حيّ...»[54]، وانه وجّه، صوب هذا الوضع، ألمه الذي، لولا الفداء، لما كان بالامكان ان يتجلّى له بملء معناه. وفي الصليب، لم يتمّ الفداء وحسب، بل افتدي ايضاً الألم البشري عينه. والمسيح - دونما ذنب منه - حمل في ذاته «كل شرّ الخطيئة». وباختبار هذا الشرّ، تحدّد مدى آلام المسيح الذي يفوق كل قياس، وهي آلام اصبحت ثمناً للفداء. وعن هذا تكلّم اشعيا في نشيده عن الخادم المتألّم، وعنه تحدّث، في ايّامهم، شهود العهد الجديد الذي ابرم بدم المسيح. واليكم ما يقول بطرس الرسول في رسالته الاولى: «فأنتم تعرفون انكم ما افتديتم بالفاني من الذهب والفضّة من اعمالكم الباطلة التي اخذتموها عن آبائكم، بل بدم كريم، دم الحمل الذي لا عيب فيه ولا دنس، الذي هو المسيح»[55]. ويقول بولس الرسول في رسالته الى الغلاطيين: «بذل نفسه عن خطايانا، لينجّينا من هذا العالم الشرير»[56]، وكذلك في رسالته الاولى الى الكورنثيين: «لأنكم بثمن اشتريتم.

٥٣ - اشعيا ٥٣، ١٠ - ١٢
٥٤ - ايّوب ١٩، ٢٥
٥٥ - ١ بطر ١، ١٨ - ١٩
٥٦ - غلا ١، ٤

فمجّدوا الله الآن بجسدكم»[٥٧].

بهذه العبارات وبمثلها يتحدّث شهود العهد الجديد عن عظمة الفداء الذي تمّ بدم المسيح. لقد تألّم الفادي مكان الانسان ومن اجل الانسان، فاصبح لكل انسان نصيبه في الفداء. وكلّ من يدعى الى المشاركة في الألم الذي تمّ به الفداء، يدعى الى المشاركة في الألم الذي به افتدي ايضا كل ألم بشري. وعندما أتمّ المسيح الفداء بآلامه، رفع في الوقت عينه الألم البشري الى درجة الفداء. فكل انسان بامكانه ان يشترك في ألمه بآلام المسيح الفادية.

٢٠. ويعرب العهد الجديد عن هذه الفكرة في مواضع عديدة وقد كتب بولس الرسول في رسالته الثانية الى الكورنتيين، قائلا: «يشتدّ علينا الضيق من كل جانب ولا ننسحق، نحار في امرنا ولا نيأس، يضطهدنا الناس ولا يتخلّى عنا الله، نسقط في الصراع ولا نهلك، نحمل في اجسادنا كل حين آلام موت يسوع، لتظهر حياته ايضاً في اجسادنا. وما دمنا على قيد الحياة، فنحن للموت من اجل يسوع لتظهر في اجسادنا الفانية حياة يسوع ايضاً. . . عارفين ان الله الذي اقام الرب يسوع من بين الاموات، سيقيمنا نحن ايضاً مع يسوع»[٥٨].

وتحدّث القديس بولس عن انواع الآلام، وعلى الاخصّ، عن تلك التي قاساها المسيحيون الاولون من

٥٧ - ١ كور ٦، ٢٠

٥٨ - ٢ كور ٤، ٨ - ١١ و١٤

«اجل يسوع». وكان من شأن هذه الآلام ان تفسح في المجال لمن وجّهت اليهم هذه الرسالة، ليشتركوا في عمل الفداء الذي تمّ بفضل آلام الفادي وموته. وما كانت القيامة بما فيها من قوّة بلاغة الاّ لتتمّ ما في الصليب من قوّة بلاغة. وفي القيامة يجد الانسان نوراً جديداً كل الجدّة يساعده على مواصلة سيره وسط ظلمات الامتهانات والعثرات والشك والاضطهاد. ولهذا كتب الرسول في رسالته الثانية الى الكورنتيين ايضا: «لأنه كما تتكاثر اوجاع المسيح فينا، يكثر بالمسيح عزاؤنا ايضاً»[٥٩]. وفي مكان آخر شجّع من خاطبهم برسالته فكتب اليهم يقول: «وربّنا يسدّد قلوبكم الى محبة الله وثبات المسيح»[٦٠]. ويقول في رسالته الى الرومانيين: «يا اخوتي، اناشدكم بمراحم الله ان تقيموا من اجسادكم ذبيحة حيّة، مقدّسة، ومقبولة لدى الله بعبادة عقليّة[٦١].

ان المشاركة في آلام المسيح لكأنها تجد في هذه التعابير الرسولية بعداً مزدوجاً. اذا شارك الانسان في آلام المسيح، فلأن المسيح فتح آلامه للانسان، لأنه هو في آلامه الفادية اشترك نوعاً ما في كل الآلام البشرية. والانسان لدى اكتشافه بالايمان آلام المسيح الفادية، يكتشف في الوقت عينه فيها آلامه الخاصة، ويجدها، بفضل الايمان، وقد اغتنت بمحتوى جديد وبمعنى جديد.

٥٩ - ٢ كور ١، ٥
٦٠ - ٢ تيمو ٣، ٥
٦١ - روم ١٢، ١

وهـذا الاكتشاف اوحى الى بـولس الرسـول هذه العبارات البليغة في رسالته الى الغلاطيين وهي: «مـع المسيح صلبت: فلست الآن انا الحيّ، بل المسيح هو الحيّ فيّ. وان كنت الآن احيا بالجسد، فانا حيّ بايمان ابن الله الذي احبّني وبذل نفسه دوني»[٦٢].

وقد اتاح الايمان لكاتب هذه العبارات التعرّف الى المحبة التي قادت المسيح الى الصليب. واذا كان قد احبّ حتى الآلام والموت، فانه بآلامه وموته يحيا ايضاً في من يحبّ، على هذا الوجه، اي انـه يحيا في الـرجل: في بولس. وهو اذ يحيا فيه ـ على ان يعي بولس بالايمان هذا الأمر، ويقابل المحبة بالمحبة ـ فانه يتّحد اتحاداً خـاصاً بواسطة الصليب بـالانسان، ببـولس. وقد اوحى هـذا الاتحاد كذلك الى بولس، في رسالته عينها الى الغلاطيين، عبارات لا تقلّ اهميّة عن تلك: «امّا انا، فليس لي ان افتخر الاّ بصليب ربنا يسوع المسيح الذي صلب به العالم لي، وانا به صلبت للعالم»[٦٣].

٢١. ان صليب المسيح يلقي على الاخصّ نوراً خلاصياً ساطعاً في حياة الانسان وفي ألمه، لأنه ينفـذ الى الانسان عبر الايمان، وفي الوقت عينه، عبر القيامة: ان سرّ الآلام يكمن في السرّ الفصحي. وشهود آلام المسيح هم شهود قيامته. وهذا ما كتبه القديس بولس: «اعرف

٦٢ ـ غلا ٢، ١٩ ـ ٢٠
٦٣ ـ غلا ٦، ١٤

يسوع وقوّة قيامته، واشترك في آلامه، واتشبّه بموته، لعلّي استطيع بلوغ القيامة التي من بين الاموات»[٦٤].

وفي الحقيقة، قد اختبر الرسول اولاً «قوّة القيامة»، على طريق دمشق، ولم يصل، فيما بعد، الى «الاشتراك في آلامه»، الاّ في هذا الضوء الفصحي الذي يتحدّث عنه مثلاً في رسالته الى الغلاطيين. انها فصحيّة تماماً طريق بولس: الاشتراك في صليب المسيح يتمّ عبر اختبار القائم من الموت، اي عبر اشتراك خاص بالقيامة. ولهذا غالباً ما تظهر في احاديث الرسول عن الألم فكرة المجد التي تبدأ بالصليب.

وقد رسخ في اعتقاد شهود الصليب والقيامة بأنه «علينا ان نمرّ بضيق كثير لندخل ملكوت الله»[٦٥]. وعندما كتب بولس بعدئذ الى التسالونيكيين قال: «انّنا نحن ايضاً نفتخر بكم... لايمانكم وصبركم على جميع اضطهاداتكم وشدائدكم التي تحتملونها، لاظهار حكم الله العادل، لتستحقّوا ملكوته الذي في سبيله تتألّمون»[٦٦]. وهكذا، ان الاشتراك في آلام المسيح هو، في الوقت عينه، آلام من اجل ملكوت الله. وفي عين الله العادل وامام قضائه، يصبح جميع الذين يشتركون في آلام المسيح، اهلاً لهذا الملكوت. وهم يدفعون نوعاً ما، بما يقاسون من شدائد، ثمن آلام المسيح وموته، وهو ثمن فدائنا الذي لا حدّ له:

٦٤ - فيليبي ٣، ١٠ - ١١
٦٥ - اعمال ١٤، ٢٢
٦٦ - ٢ تيمو ١، ٤ - ٥

وبهذا الثمن يتوطّد مجدّداً ملكوت الله في تاريخ الانسان، ويضحي اقصى ما يتطلّع اليه في حياته على الارض. لقد ادخلنا المسيح بآلامه في هذا الملكوت؛ والذين يغمرهم سرّ فداء المسيح، يصبحون ناضجين للعمل على بنائه.

٢٢. ويقترن هذا التطلّع الى ملكوت الله برجاء هذا المجد الذي ابتدأ بصليب المسيح. لقد تجلّى هذا المجد بالقيامة ـ المجد النهيوي ـ الذي حجبته على صليب المسيح، آلام قادحة. والذين يشتركون في آلام المسيح، هم ايضاً مدعوون، بما يتحمّلون من آلام، الى الاشتراك بالمجد. وهذا ما اعلنه بولس في مواضع مختلفة. وقد كتب الى الرومانيين ما يلي: «فنحن... بنو ميراث يسوع المسيح، ان كنا نتألّم معه لنتمجّد معه. واني ارى ان آلام هذا الزمان، لا توازي المجد المزمع ان يتجلّى فينا»[٦٧]. ونقرأ في الرسالة الثانية الى الكورنتيين: «ان ضيق هذا الزمان، وان خفيفاً وقليلاً، يعدّ لنا مجداً عظيماً لا حدّ له الى ابد الدهور. لأننا لا نفرح بهذه الاشياء التي ترى، بل بتلك التي لا ترى»[٦٨]. واعلن بطرس الرسول هذه الحقيقة في رسالته الاولى، بقوله: «افرحوا لأنكم صرتم شركاء في آلام المسيح، حتى يوم ظهور مجده تفرحوا ايضاً وتبتهجوا»[٦٩].

ان سبب الآلام والمجد يرتدي طابعاً انجيلياً بحتاً،

٦٧ ـ روم ٨، ١٧ ـ ١٨
٦٨ ـ ٢ كور ٤، ١٧ ـ ١٨
٦٩ ـ ١ بطر ٤، ١٣

وهو يتوضّح وينجلي بقدر ما يرتبط بالصليب والقيامة. لقد اصبحت القيامة، قبل كلّ، مظهراً للمجد الذي يقابل ارتفاع المسيح بواسطة الصليب. ورغم ان الصليب قد تبدّى للناس كأنه تجريد للمسيح وتحقير له، فقد كان، في الوقت ذاته، تمجيداً له، في عين الله. لقد تابع السيد المسيح رسالته على الصليب وحقّقها: فهو باتمامه ارادة ابيه، قد اثبت، في الوقت عينه، ذاته وحقّقها. واظهر في الضعف قوّته، وفي الضعة، عظمته المسيحانية. افلا تشهد لهذه العظمة، العبارات التي فاه بها على الجلجلة، وهو يلفظ انفاسه الاخيرة، وعلى الاخصّ العبارة التي تتعلّق بصالبيه: «اغفر لهم، يا أبتاه، لأنهم لا يعلمون ما يفعلون»[٧٠]. ولهذه العبارات أثرها على الذين يشاركون في آلام المسيح، لما تعطيه من مثل. وبعد فالألم دعوة الى اظهار سموّ الانسان الادبي ونضجه الروحي. وهذا ما برهن عنه شهداء المسيح والمعترفون في مختلف العصور، لثقتهم بهذا القول: «لا تخافوا الذين يقتلون الجسد، ولا يستطيعون ان يقتلوا النفس»[٧١].

لقد كشفت قيامة المسيح عن «مجد الدهر الآتي»، واثبتت، في الوقت عينه «مجد الصليب»: هذا المجد الكامن في آلام المسيح، والذي غالباً ما انعكس وينعكس في آلام الانسان كصورة تظهر عظمته الروحية. ولا بدّ من الاعتراف بهذا المجد، ليس فقط لدى شهداء الايمان، بل

٧٠ - لو ٢٣، ٣٤
٧١ - متّى ١٠، ٢٨

ايضاً لدى الكثيرين من الناس سواهم الذين، رغم انهم لا يؤمنون بالمسيح، يتألّمون احياناً ويبذلون حياتهم في سبيل الحقيقة او قضية اخرى عادلة. وتؤكّد مضايق هؤلاء جميعاً تأكيداً خاصاً عظمة الانسان الفائقة.

٢٣. ان الألم هو دائماً امتحان - واحياناً امتحان عسير - يخضع له الجنس البشري. وانّا غالباً ما نعجب لما اوردته صفحات من رسائل القديس بولس عن التضاد الانجيلي القائم بين الضعف والقوّة، الذي اختبره الرسول عينه، واختبره معه جميع الذين يشاطرون المسيح آلامه. وقد كتب بولس في رسالته الثانية الى الكورنتيين: «فانا الآن افتخر بامراضي مسروراً، لتحلّ عليّ قوّة المسيح»[٧٢]. واليكم ما نقرأ في رسالته الثانية الى تيموتاوس: «لذلك انا احتمل تلك الامور ولا استحي بها، لأني عارف بمن آمنت»[٧٣]. ويقول هو عينه في رسالته الى الفيليبيّين «فاني قويّ على كل شيء بالمسيح الذي يقوّيني»[٧٤].

والذين يشاطرون المسيح آلامه، يضعون نصب اعينهم سرّ الصليب والقيامة الفصحي الذي انحدر فيه السيد المسيح، بداءة بدء، الى آخر دركات الضعف والحرمان حتى مات معلّقاً على الصليب. ولكن اذا كان،

٧٢ - ٢ كور ١٢، ٩
٧٣ - ٢ تيمو ١، ١٢
٧٤ - فيليبي ٤، ١٣

في وسط هذا الضعف، قد تمّ ارتفاعه الذي اثبتته قوّة القيامة، فهذا معناه ان باستطاعة قوّة الله التي ظهرت في صليب المسيح ان تنفذ الى ما في ضيقات البشر جمعاء من ضعف وتعمل فيه. وبحسب هذا المفهوم، يصبح التألّم مرادفاً على الاخص للتحسس والانفتاح على عمل قوّة الله الخلاصية التي جاء بها السيد المسيح الانسان. لقد أكّد الله بهذا العمل انه يريد ان يعمل خاصّة بواسطة الألم، اي بواسطة ضعف الانسان وحرمانه، ويظهر قوّته بهما. وهذا ما يشرح الوصية التي وردت في رسالة بطرس الاولى وهي: «اذا تألّم (أحد) لأنه مسيحي، فلا يخجل، بل ليسبّح الله على الاسم هذا»[٧٥].

ويفيض بولس الرسول في رسالته الى الرومانيين بالكلام عن هذه الولادة، «ولادة القوّة من الضعف»، وعن هذا التجدّد الروحي للانسان وسط التجارب والمحن. وهذا التجدّد هو دعوة خاصة للذين يشاركون في آلام المسيح: «انّا نفتخر بشدائدنا ايضاً، لأننا نعلم ان الشدّة تكمل فينا الصبر، والصبر، الامتحان. والامتحان، الرجاء. وان الرجاء لا يخيب، لأنه يفيض على قلوبنا محبّة الله التي وهبت لنا بالروح القدس»[٧٦]. وفي الألم دعوة خاصة للانسان الى الفضيلة التي ينبغي له ان يمارسها بدوره. وهي فضيلة الصبر على تحمّل الشدائد والمضايق. والانسان، بفعله هذا، يولّد الرجاء الذي يوليه

٧٥ ـ ١ بطر ٤، ١٦

٧٦ ـ روم ٥، ٣ ـ ٥

القناعة بأن المحنة لن تنال منه، وانها لن تقوى على حرمانه الكرامة الانسانية التي ترتبط بوعيه معنى الحياة. ويتجلّى معنى الحياة هذا، في الوقت عينه، مع عمل محبة الله الذي هو من اعظم هبات الروح القدس. وبقدر ما يشارك الانسان في هذه المحبة، يكتشف مجدّدا انه يتغلّب في غمرة الألم: فيجد «نفسه» التي كان قد ظنّ انه «فقدها»[٧٧] من جرّاء الألم.

٢٤. ولكن اختبارات الرسول المشارك في آلام المسيح تذهب الى أبعد من ذلك. انا نقرأ في رسالته الى الكولوسيين عبارة كأنها تشكّل حدًّا اخيراً للمسيرة الروحية المتعلّقة بالألم. واليكم ما كتب: «وانا افرح بالآلام لاجلكم، فاتمّم بجسدي ما نقص من آلام المسيح، لاجل جسده الذي هو الكنيسة»[٧٨]. وهو في رسالة اخرى يسأل من بعث بها اليهم قائلاً: «أما تعلمون ان اجسادكم هي اعضاء للمسيح؟»[٧٩].

في السرّ الفصحي، دشّن المسيح اتحاده بالانسان في جماعة الكنيسة. وهكذا يعلن عن سرّ الكنيسة، وهو انه عندما يمنح الانسان العماد الذي بواسطته تنطبع فيه صورة المسيح، ثم بواسطة ذبيحة المسيح ـ وسريًّا بالافخارستيا ـ تُبنى الكنيسة دائماً، بوصفها جسد المسيح، روحياً، وباستمرار. وقد اراد المسيح ان يتّحد في هذا

٧٧ ـ راجع مر ٨، ٣٥؛ لو ٩، ٢٤؛ يو ١٢، ٢٥
٧٨ ـ كولوسي ١، ٢٤
٧٩ ـ ١ كور ٦، ١٥

الجسد بجميع الناس، ولا سيّما المتألمين. وتؤكّد العبارات التي اوردتها الرسالة الى الكولوسيين طبيعة هذا الاتحاد الفريدة. ومن تألّم بالاتحاد مع المسيح ـ على مثال ما تحمّل بولس الرسول آلامه بالاتحاد مع المسيح ـ لا ينهل من معين المسيح هذه القوّة التي اشرنا اليها سابقاً وحسب، لكنه يتمّ بآلامه «ما نقص من آلام المسيح». وتبرز في هذا الاطار الانجيلي الحقيقة المتعلّقة بطبيعة الألم الخلاق. لقد فجّرت آلام المسيح خيراً عميماً للعالم وهو الفداء، الذي لا ينضب، ولا حدّ له وليس بامكان احد ان يضيف اليه اية اضافة. لكن المسيح فتح نوعاً ما، في الوقت عينه، في سرّ الكنيسة التي هي جسده، آلامه الفادية على جميع آلام الناس. وعلى قدر ما يشترك الانسان في آلام المسيح ـ في ايّ مكان من العالم وفي ايّ زمن من التاريخ ـ يتمّم على طريقته الآلام التي تمّم بها المسيح فداء العالم.

هل هذا يعني ان الفداء الذي قام به المسيح ناقص؟ كلاّ. هذا يعني فقط ان الفداء الذي أنجز بقوة المحبة التعويضية يبقى منفتحاً باستمرار على كل محبة، تعرب عن ذاتها بالألم البشري. ومن هذه الزاوية ـ زاوية المحبة ـ يتواصل، نوعاً ما، باستمرار الفداء الذي كان قد تمّ قبلاً كل التمام. لقد قام المسيح بعمل الفداء بصورة كاملة وحتى النهاية، لكنه لم يضع له في الوقت عينه حدًّا ولا ختمه: لقد انفتح المسيح في الآلام الفادية التي تمّ بها فداء الجميع، منذ البداية، وينفتح باستمرار على كل ألم بشري. اجل ان من جوهر آلام المسيح الفادية، على ما يبدو، ان تنزع الى التمام دونما انقطاع.

وهكذا افتدى المسيح العالم بآلامه الخاصة، لـدى انفتاحه على آلام البشر. وهذا الفداء، رغم انه تمّ كل التمام بآلام المسيح، فهو في الوقت عينه وعلى طريقته، يحيا وينمو في تاريخ البشر. انه يحيا وينمو كجسد المسيح، الذي هو الكنيسة، وكل ألم بشري، في هذا المفهـوم، ولاشتراك الجميع في محبة المسيح، يتمّ آلام المسيح، مثلما تتمّ الكنيسة عمل المسيح الخلاصي. ان سرّ الكنيسة ـ اي هذا الجسد الذي تمّم بذاته ايضاً جسد المسيح المعلّق على الصليب والقائم من الموت ـ يظهر هذا المدى الذي تتمّ فيه آلامُ البشر آلامَ المسيح. ومن هذا المنطلق، وبهذا المفهوم، عن الكنيسة ـ جسد المسيح الذي ينمو باستمرار في كل مكان وزمان، يجوز التفكير والتحدّث عمّا «ينقص» من آلام المسيح. ويعدُ هذا ما اوضحه الرسول، عندما كتب عن وجوب اتمام «ما نقص من آلام المسيح من اجل جسده، الذي هو الكنيسة».

والكنيسة، التي تغرف باستمرار من كنوز الفداء التي لا تنفد، ـ بادخالها هذا الفداء في حيـاة البشر ـ هي الزاوية التي يمكن منها ان تتمّ آلامُ البشر دونما انقطاع، آلام المسيح الفادية. وهذا ما يبرز طبيعة الكنيسة التي هي في وقت معاً الهية وانسانية. ويبدو ان الألم يتّسم نوعاً ما بسمات هذه الطبيعة. ولهذا فان له في عين الكنيسة فائدة خاصة. فالألم خير تحترمه الكنيسة كل الاحترام، بكل ما لها من ايمان بالفداء، اي بما لها من عمق ايمان تتقبّل معه هذا الفداء، وتعتنق معه هذا السرّ العظيم، سرّ جسد المسيح الذي يعجز عنه الوصف.

٦
انجيل الألم

٢٥ . لقد سلّم شهود صليب المسيح وقيامته الى الكنيسة والناس، انجيلاً خاصّاً بالألم. وكان الفادي هو اول من كتب هذا الانجيل بآلامه التي تحمّلها بدافع من المحبة «لكيلا يهلك (الانسان)، بل تكون له الحياة الابدية»[٨٠]. وقد اضحت هذه الآلام، بالاضافة الى تعليمه بالكلام الحي، ينبوعاً ثرّاً لجميع الذين شاركوا في آلام المسيح من الجيل الاول من التلاميذ والمعترفين، وبعدئذ من الاجيال التي توالت على كرّ العصور. وان ما يعزّي اولاً ـ وهذا ما يؤيّده الانجيل والتاريخ ـ ان نجد دائماً الى جانب المسيح، في اول مكان وابرزه، امه لتعطي شهادة قد اعطتها بحياتها الكاملة لهذا الانجيل الخاص بالألم. وقد تجمّع لها من انواع الآلام الشديدة القاسية ما لم يثبت ايمانها غير المتزعزع وحسب، بل ساعد ايضاً على فداء الجميع. وفي الحقيقة، انها منذ ذلك الحديث السرّي

٨٠ ـ يو ٣، ١٦

الذي دار بينها وبين الملاك، شعرت، بما اوتيت من رسالة والدية، ان «المهمّة الموكولة اليها»، انما هي ان تشارك مشاركة وحيدة فريدة في رسالة ابنها. وهذا ما تأكّد، بعد قليل من الزمن، سواء بما حدث لدى ميلاد يسوع في بيت لحم، ام بما تنبّأ عنه، بلهجة جازمة، سمعان الذي تحدّث عن سيف حادّ سيجوز بنفسها، ام بما كان عليها ان تقاسيه من احزان واوجاع لدى الهرب الى مصر بسبب القرار الظالم الذي اتخذه هيرودس على وجه السرعة.

ومن ثمّ ان الطوباوية مريم العذراء، بعد ما قام به ابنها في حياته الخفيّة والعامة ـ وهو ما شاركته فيه، دونما شك، بكل ما لديها من مشاعر رقيقة ـ بلغت آلامها على الجلجلة ذروة لا يستطيع عقل بشري ان يتخيّلها، ولكنها ذروة، وان خفيّة، فانها من الناحية الفائقة الطبيعة، خصيبة على صعيد الفداء الشامل. وكان صعودها الى الجلجلة، «ووقوفها» الى جانب الصليب مع التلميذ الحبيب اشتراكاً خاصاً في موت ابنها الفادي، وكذلك كانت الكلمات التي سمعتها من فمه بمثابة وصيّة رسمية حفزتها على نشر هذا الانجيل الفريد على جماعة المؤمنين كلّها.

ان الطوباوية مريم العذراء التي شهدت آلام ابنها بحضورها، وشاركت فيها بتألّمها معه، ساهمت مساهمة فريدة، في انجيل الألم حتى لكأنها كتبت منه مع ابنها صفحات كثيرة، واتمّت بحياتها مسبقاً كلام القديس بولس في مستهلّ هذه الرسالة المشار اليها. اجل لقد كان

باستطاعتها ان تقول انها «تتمّ بجسدها - كما فعلت في قلبها - ما ينقص من آلام المسيح».

وفي ضوء مثل المسيح الذي لا مثيل له، هذا الضوء الذي ينعكس انعكاساً فريداً على حياة امه، يصبح انجيل الألم، بفضل شهادة الرسل وكتاباتهم، ينبوعاً لا ينضب للاجيال الجديدة التي تتعاقب دائماً في تاريخ الكنيسة. ويدلّ انجيل الألم على ان ليس هناك ألم في الانجيل كأنه احد مواضيع البشرى الصالحة وحسب، لكنه يكشف ايضاً عن قوّة الألم الخلاصية، ومعناه الخلاصي في رسالة المسيح المسيحانية، ومن ثمّ في رسالة الكنيسة ودعوتها.

وما اخفى السيد المسيح على سامعيه ضرورة الألم. وقد قال بواضح العبارة: «من اراد ان يتبعني... فليحمل صليبه كل يوم»[81]، وقد وضع لتلاميذه قواعد ادبية لا يمكن تطبيقها الّا «بالكفر بالنفس»[82]. والطريق الذي يؤدّي الى ملكوت السماء «ضيّق، شاقّ» ويضعه السيد المسيح في مقابل الطريق «الواسع، الرحب» الذي «يقود الى الهلاك»[83]. وغالباً ما أكّد المسيح لتلاميذه والمعترفين به ان عليهم ان يقاسوا اضطهادات كثيرة، وهذا - على ما يبدو - ما حدث، لا في العصور الغابرة من حياة الكنيسة في الامبراطورية الرومانية وحسب، بل

٨١ - لو ٩، ٢٣
٨٢ - راجع لو ٩، ٢٣
٨٣ - راجع متى ٧، ١٣ - ١٤

ايضاً قد حدث ويحدث في مختلف احقاب التاريخ والامكنة، ولا يزال يحدث في عصرنا هذا.

واليكم بعض ما قاله السيد المسيح في هذا المجال: «يلقون عليكم الايدي، ويضطهدونكم، ويسلّمونكم الى المجامع والسجون، ويحضرونكم امام الملوك والولاة من اجل اسمي، فيكون لكم ذلك للشهادة. ضعوا في قلوبكم انّكم لن تكونوا عارفين ما تحتجّون به، لأني انا اعطيكم فماً وحكمة لا يقدر جميع اعدائكم على مقاومتها. ويسلّمكم اباؤكم واخوتكم وانسباؤكم واصحابكم، ويميتون منكم، فتكونون مبغضين من الجميع من اجل اسمي. وشعرة واحدة من رؤوسكم لا تهلك، وبصبركم تقتنون نفوسكم»[٨٤].

ويتحدّث انجيل الألم اولاً في مواضع مختلفة عن الألم «من اجل المسيح» و«بسبب المسيح»، وذلك بعبارات يسوع عينه، او بعبارات رسله. ولا يخفي المعلّم عن رسله واتباعه ما سيلقون من عذابات قاسية، لكنه على العكس، يظهر لهم ذلك ويعلن، في الوقت عينه، ما سيرافقهم من ايدٍ الهي في ما يقع عليهم من اضطهادات ويصيبهم من ضيقات «من اجل اسم المسيح». وستؤيّد هذه الآلام، بصورة فريدة، ما بينهم وبين السيد المسيح من شبه، ومعه من وحدة. «ان يبغضكم العالم، فاعلموا انه ابغضني قبلكم... ولكن لستم من العالم. انا

٨٤ ـ لو ٢١، ١٢ ـ ١٩

اخترتكم من العالم، ولهذا يبغضكم العالم... ليس عبد اعظم من سيّده. فان كانوا اضطهدوني، فسوف يضطهدونكم ايضاً... غير انّهم سيفعلون بكم كلّ هذا، من اجل اسمي، لانهم لا يعرفون الذي ارسلني»[٨٥].
«قلت لكم هذا، ليكون لكم بي السلام. سيكون لكم في العالم ضيف، ولكن، تقوّوا، انا غلبت العالم»[٨٦].

وفي هذا الفصل الاول من انجيل الألم الذي يتحدّث عن الاضطهادات، اي عن الضيقات من اجل المسيح، دعوة خاصة الى رباطة الجأش وقوّة الشكيمة، بالاستناد الى ما في القيامة من قوّة خارقة. لقد غلب المسيح العالم، في كل زمان، بقيامته. لكن، بما ان هذه القيامة ترتبط بالألم والصليب، فقد غلب المسيح، في الوقت عينه، العالم بآلامه. أجل لقد اندرج الألم، بطريقة خاصة، في هذه الغلبة على العالم التي ظهرت في القيامة ويحتفظ المسيح في جسده القائم من الموت بآثار جراح الصليب: في يديه، ورجليه، وجنبه، وهو يظهر بالقيامة قوّة الألم الظافرة، ويرسّخ الاعتقاد بجدوى هذه القوّة، سواء أكان في نفوس الرسل الذين اختارهم، ام في نفوس الذين لا يزال يختارهم ويرسلهم. ولهذا يقول الرسول: «فجميع الذين يريدون ان يحيوا بخوف الله، فبيسوع المسيح يُضطهَدون»[٨٧].

٨٥ - يو ١٥، ١٨ - ٢١
٨٦ - يو ١٦، ٣٣
٨٧ - ٢ تيمو ٣، ١٢

٢٦. اذا كان الفصل الاول الكبير من انجيل الألم يكتبه، عبر الاجيال، اولئك الذين يقاسون الاضطهاد من اجل المسيح، فان هناك فصلاً آخر كبيراً من هذا الانجيل يُكتب على مرّ التاريخ، ويكتبه جميع اولئك الذين يتألّمون مع المسيح، فيقرنون آلامهم البشرية بآلامه الخلاصية، ويتمّ فيهم ما قاله او كتبه شهود الآلام والقيامة الاولون في المشاركة في آلام المسيح. ويتمّ فيهم بالتالي انجيل الألم، ويواصل، في الوقت عينه، كل منهم كتابته، نوعاً ما: يكتبه ويعلنه على العالم، ويعلنه على محيطه ومعاصريه.

وقد تبيّن، عبر العصور والاجيال، ان هناك قوّة فريدة تكمن في الألم وتربط الانسان ارتباطاً وثيقاً بالمسيح، وهذه نعمة خاصة. وهناك قديسون عديدون مثل القديس فرنسيس الاسيزي، والقديس اغناطيوس دي لويولا وسواهم، مدينون بارتدادهم الاصيل لهذه النعمة. ولا ينحصر مفعول هذا الارتداد في اكتشاف الانسان معنى الألم الخلاصي وحسب لكنه يجعل، على الاخص، من هذا الانسان، بفضل الألم، انساناً جديداً كل الجدّة؛ حتى لكأنه يسعى الى هدف جديد من وراء تصرّفاته في حياته وتحقيقه دعوته. وان ما يكتشفه الانسان، بهذه الطريقة، ليثبت خاصة عظمة الروح الذي يفوق فيه الجسد بما لا يضاهى. وعندما يمرض هذا الجسد مرضاً شديداً، وتخذله قواه حتى، ليكاد الانسان، لا يقوى على الحياة والعمل، يبرز اذ ذاك النضج الباطني، والعظمة الروحية. وفي هذا عبرة بليغة للاصحّاء.

وهذا النضج الباطني، وهذه العظمة الروحية في الألم، هما، على وجه التأكيد، ثمرة ارتداد خاص، وعمل متضافر مع نعمة الفادي المعلّق على الصليب. والفادي هو من يعمل في اعماق الآلام البشرية بواسطة روحه، روح الحق، الروح المعزّي. وهو من يغيّر، على نحو ما، جوهر الحياة الروحية، عندما يظهر للمريض انه واقف الى جانبه. وهو، ـ معلّماً وقائداً للنفوس ـ من يعلّم الاخوة والاخوات المتألّمين، هذا التبادل العجيب، القائم في صميم سرّ الفداء. ان الألم من طبعه هو اختبار للشرّ. لكن المسيح وضع فيه اساساً وطيداً للخير الباقي، اعني خير الخلاص الابدي. وعندما تألّم المسيح على الصليب، نفذ الى اصل الشرّ، وهو الخطيئة والموت. لقد تغلّب على صانع الشرّ، اي الشيطان، وعلى ثورته الدائمة على الله. ويفتح المسيح للاخوة والاخوات المتألّمين تدريجياً آفاق ملكوت الله ويرشدهم الى عالم مرتدّ الى الخالق، محرّر من الخطيئة، عالم ينهض شيئاً فشيئاً على قوّة المحبة الخلاصية. ويدخل المسيح الانسان الخاضع للألم، خطوة خطوة، انما بطريقة اكيدة، من خلال الألم عينه، في هذا العالم، عالم ملكوت الآب. ذاك انه لا يمكن تحويل الألم وانضاجه من الخارج، بل من الداخل بواسطة النعمة. ويقيم المسيح بآلامه الخلاصية في صميم كل ألم بشري، وباستطاعته ان يعمل من داخله بقوّة روحه، روح الحق، روحه المعزّي.

وليس هذا وحسب. ان الفادي الالهي يرغب في الدخول الى نفس كل متألّم، من خلال قلب امه الطوباوية، باكورة جميع المفتدَين، وقمّتهم. والمسيح، وقد

اشرف على الموت، وتقديراً منه للأمومة التي أبصر بواسطتها النور، بفعل الروح القدس، لكأنه منح الطوباوية مريم الدائمة البتولية عينها امومة جديدة ـ وهي امومة روحية شاملة ـ تعمّ جميع الناس، لكي يرتبط به معها، حتى الصليب، كل من سار على هدي الايمان على الارض، ويتحوّل، بقوّة الصليب، كل ألم ناشىء عن ضعف الانسان، الى قوّة الله.

لكن هذه المسيرة الباطنية لا تتمّ دائماً بالطريقة ذاتها. فهي غالباً ما تبدأ وتتركّز بصعوبة. ذاك ان هناك اختلافاً منذ البداية: ويختلف تصرّف الانسان تجاه الألم باختلاف استعداده النفساني. غير انه بالامكان ان نلاحظ هذا: وهو انه ما من احد قارب الألم الّا واحتجّ تقريباً دائماً من ذات طبعه، وتساءل قائلاً: «لماذا»؟ كلّ يبحث عن معنى الألم، ويبحث عن جواب لهذا السؤال على الصعيد الانساني. وهو طبعاً يلقي ايضاً هذا السؤال، مرات عديدة، على الله وعلى المسيح. ولكن الانسان يفهم حق الفهم ان من يسأله يتألّم هو ايضاً وانه يريد ان يجيبه من على الصليب، اي من اعماق آلامه. لكن، لا بدّ من فترة، وفترة كبيرة من الزمن ليصبح بالامكان اكتناه هذا الجواب. ذلك ان المسيح لا يجيب مباشرة، ولا بطريقة نظريّة، على سؤال الانسان عن معنى الألم. ويسمع الانسان الجواب الخلاصي على قدر ما يصبح، مع الوقت، شريكاً في آلام المسيح.

والجواب الذي يعطى، عن طريق مشاركة من هذا

النوع، في علاقة باطنية مع المعلّم، هو اكبر من جواب بسيط نظري عن معنى الألم. ان جواب المسيح هو، قبل كلّ، نداء، لا بل انه دعوة. ولا يشرح المسيح اسباب الألم، شرحاً مجرّداً عن الوقائع، لكنه، قبل كلّ، يقول: «اتبعني». تعالَ. كن بآلامك مشاركاً في هذا العمل من اجل خلاص العالم، العمل الذي يتمّ بآلامي، بصليبي. وعندما يحمل الانسان صليبه، يصبح مشدوداً روحياً الى صليب المسيح، ويتّضح له معنى الألم الخلاصي. ولا يجد الانسان هذا المعنى، بوصفه انساناً، بل من خلال آلام المسيح. وينحدر حينئذٍ معنى الألم الشخصي هذا عن مستوى المسيح الى المستوى البشري، ويضحي نوعاً ما جواباً له شخصياً. واذ ذاك يجد الانسان في ألمه السلام الباطني، وكذلك الفرح الروحي.

٢٧. وقد تحدّث الرسول عن هذا الفرح في رسالته الى الكولوسيين فقال: «وانا افرح بالآلام لاجلكم»[٨٨]. والتغلّب على الشعور بعدم فائدة الألم يصبح ينبوع فرح، وهو شعور يتأصل احياناً في الألم البشري. ولا ينهك هذا الألم الانسان في اعماقه وحسب، بل يجعله عالة على سواه. فيشعر بالحاجة الى قبول المساعدة والعناية من الآخرين، ويبدو لذاته، في وقت معاً، كأنه عديم الفائدة. وهكذا يبدّل اكتشاف معنى الألم الخلاصي لدى المؤمن الذي يتحمّله مع المسيح هذا الشعور المحزن. والايمان بالاشتراك في آلام المسيح يحمل معه اليقين

٨٨ ـ كولوسي ١، ٢٤

الباطني بأن من يتألّم «يتمّ ما ينقص من آلام المسيح»، وهذا ما يؤول، في المفهوم الروحي لعمل الفداء، وعلى نحو ما اراد السيد المسيح، الى خلاص اخوته واخواته. فهو اذن لا يفيد الآخرين وحسب، بل يقوم بمهمّة لا يمكن ان يقوم بها سواه. وفي جسد المسيح الذي ينمو باستمرار، انطلاقاً من صليب الفادي، لا بدّ من الألم المتشرّب قوّة ذبيحة المسيح، وسيطاً وينبوعاً لخيور تؤول حتماً بطبيعتها الى خلاص العالم. ويشقّ هذا الألم، اكثر من أيّ شيء آخر، الطريق الى النعمة التي تغيّر نفوس البشر، ويجعل قوى الفداء حاضرة في التاريخ البشري وفاعلة فيه. وفي هذا الصراع «الكوني» بين قوى الخير والشرّ الروحية، والذي اشارت اليه الرسالة الى الافسسيين[٨٩]، تدعم آلام البشر المقرونة بآلام المسيح الفادي، دعماً خاصاً، قوى الخير وتساعد كثيراً على انتصار هذه القوى الخلاصية.

وتحسب الكنيسة جميع اخوة المسيح واخواته الذين يتألّمون، شخصاً متعدّداً يشعّ بقوّتها الالهية. وغالباً ما يلجأ رعاة الكنيسة اليهم ويسألونهم العون والمدد. وانجيل الألم يُكتب باستمرار ويُروى بكلمات تعبّر عن شؤون عجيبة تخالف الرأي المألوف: ذلك ان ينابيع القوّة الالهية تتفجّر من قلب الضعف البشري. والذين يشتركون في آلام المسيح يحتفظون في آلامهم الخاصة بجزء فريد من كنز فداء العالم الغير المتناهي. وبامكانهم ان يتقاسموا هذا

٨٩ ـ راجع افسس ٦، ١٢

الكنز وسواهم. وبقدر ما تهدّد الخطيئة الانسان، وبقدر ما تشتدّ وطأة الخطيئة التي يحملها العالم في ذاته، تتعاظم اهمية الآلام البشرية، وتضطرّ الكنيسة الى استخدام ما في الألم البشري من خير لاجل خلاص العالم.

٧

السامري الصالح

٢٨. وفي اطار انجيل الألم يندرج ايضاً ـ عضويّاً ـ مثل السامري الصالح. وقد اجاب المسيح، في هذا المثل، السائل عن «من هو قريبي»[٩٠]. وفي الواقع، من بين الثلاثة الذي كانوا منحدرين من اورشليم الى اريحا، على الطريق الذي كان ملقى عليه، وهو شبه ميت، رجل سلبه اللصوص وجرحوه، ان السامري هو من اظهر عن نفسه بأنه في الحقيقة قريب من ذلك المسكين: وتعني لفظة قريب، في وقت معاً، من يتمّ وصية المحبة تجاه القريب. وكان هناك مسافران آخران يسلكان الطريق عينه: وكان الاول كاهناً والآخر لاوياً، «وكلاهما رآه وعبر». امّا السامري، «فرآه فرحمه، فدنا وضمّد جراحه» ثم «أتى به الفندق واهتمّ به»[٩١]. ولدى رحيله، اوصى صاحب الفندق بالأهتمام بالرجل الذي كان يتألّم، وتعهّد بأن يدفع له النفقات اللازمة.

٩٠ ـ لو ١٠، ٢٩
٩١ ـ لو ١٠، ٣٣ ـ ٣٤

ان مثل السامري الصالح يدخل في اطار انجيل الألم. وهو يظهر الطريقة التي يجب على كل منا ان يتّبعها مع قريب يتألّم. فلا يجوز لنا اذن ان «نعبر» غير مبالين، لكن علينا ان «نتوقّف» الى جانبه. انه سامري صالح كل من يقف الى جانب آلام رجل آخر، ايّاً تكن هذه الآلام. ويجب ألاّ يكون هذا الوقوف فضولاً، بل نفساً مستعدّة للمساعدة، بحيث يصبح كأنه ملكة راسخة في قلب الانسان تحمله على الانفتاح والاستجابة لمعاني التأثّر والشفقة. انه سامري صالح كل من يتأثّر لالام الآخرين «وتأخذه الشفقة» لمصائب القريب. واذا كان السيد المسيح، الذي يعرف جيداً ما في الانسان، يظهر مثل هذه المشاعر من التأثّر، فلأنه يريد بذلك ان يولّد فينا مثلها ازاء ما يقاسيه الآخرون من آلام. فيجب اذن تعهّد هذه الطاقة من المشاعر القلبية التي تدلّ على عاطفة شفقة تجاه من يتألّم. وهي قد تكون احياناً التعبير الوحيد او الأهمّ عن محبتنا لمن حلّ به الألم وعن تضامننا معه.

ولكن هذا السامري في المثل الذي ضربه السيد المسيح لا يكتفي بمشاعر التأثّر والشفقة: لقد كانت هذه حافزاً له على القيام بما يجب من مساعدة للجريح. وعلى الجملة، انه سامري ذاك الذي يسعف المتألّم، ايّاً تكن آلامه، ويحمل اليه، على قدر المستطاع، المساعدة الناجعة. انه يبذل من قلبه، لكنه لا يهمل المعونة الماديّة. ويمكن التأكيد انه يعطي ذاته «الأنا» الخاصة به، ويفتحها على الآخرين. ونصل هنا الى اهمّ فصول علم الانسان في المفهوم المسيحي. ولا يمكن الانسان ان «يجد ذاته كاملة،

ما لم يهب هذه الذات هبة خالصة»[٩٢]. انه سامري صالح ذاك الذي بامكانه ان يقوم بهذه الهبة، هبة الذات.

٢٩. يمكن القول، لدى التوقّف على المثل الانجيلي، ان الألم الموجود بين الناس باشكال متعدّدة، انما هو بينهم لكي يحمل الانسان على اطّراح الاثرة، ويوقظ فيه المحبة اي هبة الذات، من اجل من نالتهم الآلام من الناس. وان عالم الألم البشري يستدعي، اذا جاز التعبير، عالماً آخر يقوم على المحبة البشرية. وبعد فالألم، انما هو حافز للانسان على تناسي منفعته الخاصة، واضرام المحبة في قلبه وتجسيدها بالاعمال. ولا يجوز للانسان «القريب» ان يمرّ وهو غير مبال بما يرى من آلام الآخرين، وذلك لما بين الناس من رابطة تضامن، وعلى الاخص لما يجب ان يشدّهم من اواصر محبة. وعليه ان «يتوقّف» و«يتأثّر»، ويتصرّف على مثال السامري في المثل الانجيلي. ويكشف هذا المثل بحدّ ذاته، عن حقيقة مسيحية راهنة، وهي، في الوقت ذاته، حقيقة انسانية شاملة. ولا يدعى عبثاً عملَ «سامريٍّ صالحٍ» في اللغة المتداولة كلُّ ما يُعمل في سبيل المتألمين والمحتاجين الى المساعدة.

وقد ارتدى هذا العمل، على مرّ العصور، صيغاً رسمية، منظّمة، واوجد شبه قطاع عمل خاص بكل مهنة، من مثل مهنة الطبيب او الممرّضة وما شابه. وكل منها انما هو عمل «سامري صالح». ونظراً الى ما في هذا

٩٢ ـ المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، دستور رعوي في الكنيسة في عالم اليوم، فرح وأمل، عد ٢٤

العمل من نفحة انجيلية، انا لنميل الى التفكير بأنه دعوة اكثر منه مهنة. وقد تنامت في ايامنا المؤسسات التي قامت، عبر العصور، بخدمة «الراعي الصالح»، واتخذت لها حقول اختصاص. وهذا ما يثبت دونما شك، ان الناس يولون، في عصرنا، آلام القريب، اهتماماً ووعياً متزايدين، ويسعون الى تفهّمها والحيلولة دون حدوثها. ويزداد التخصّص في هذا الحقل، يوماً بعد يوم، ويتعمّق الاطّلاع الفنّي، ويتّسع حقل الممارسة. واذا نظرنا الى ذلك كلّه، أمكننا القول، بحق، ان مثل السامري الصالح اصبح جزءاً هامّاً من الثقافة الادبية والحضارة الانسانية الشاملة. واذا ما نظرنا ايضاً الى جميع الذين يساعدون، بعملهم وخبرتهم، بطرق شتّى، القريب الذي يشكو الألم، لا يمكننا الاّ ان نتوجّه اليهم بالشكر ونعرب لهم عن خالص الامتنان.

ونريد ايضاً ان نوجّه مثل هذا الشكر الى جميع الذين، دونما التفات الى راحتهم، ينصرفون الى خدمة القريب المتألّم، ويبذلون من ذاتهم للمساعدة على مثال «السامري الصالح»، ويخصّصون، خارج نطاق عملهم المهني، كلّ ما يتبقّى لهم من وقت وقوى، في هذا السبيل. وهذا النشاط الاختياري، نشاط «الراعي الصالح»، او واجب المحبة، يمكن تسميته بالنشاط الاجتماعي، او ايضاً بالرسالة، كلّما بُذل لاغراض انجيلية حقيقية، وخاصة، اذا تمّ بالنظر الى الكنيسة او الى ايّة جماعة مسيحية. ويمارس عمل «السامري الصالح» الاختياري في الاوساط الملائمة، او بواسطة مؤسسات

انشئت لهذه الغاية. ولهذا النشاط الذي يتمّ، بهذه الطريقة، اهمية كبرى، على الأخصّ عندما يجب القيام بمهمات كبيرة تستوجب تضافر الجهود واستعمال وسائل فنيّة. وليس عمل الافراد باقلّ قدراً، على الاخص عندما يقوم به اشخاص يقبلون على مختلف انواع الامراض والآلام البشرية، فيعملون على التخفيف منها شخصياً بعمل فردي. واما المساعدة العائلية، فتعني امّا مبادرة القريب من اعضاء العائلة الواحدة باعمال المحبة، وامّا المساعدة المتبادلة بين العائلات.

وليس من السهل تعداد جميع انواع نشاط «السامري الصالح» هنا، ولا مختلف حقوله في الكنيسة والمجتمع البشري. غير انه لا بدّ من الاقرار بأنها كثيرة، ومن الاعراب عن مشاعر الفرح لكون القيم الادبية الاساسية، من مثل قيمة التضامن بين الناس، والمحبة المسيحية للقريب، تصوغ، عبر انواع هذا النشاط، وجه الحياة الاجتماعية والعلاقات بين الناس، في حين يشوّهه، في هذا المجال، مختلف انواع البغض، والعنف، والقسوة، واحتقار الانسان، او فقط «اهمال القريب» اي اللامبالاة به وبآلامه.

ومن الأهميّة بمكان التشديد هنا على ما يجب الأخذ به من مبادىء في التربية. وعلى العائلة، والمدرسة، وسائر المؤسسات المعنيّة بالشؤون التربوية - ولو فقط لاسباب انسانية - ان تسعى دائبة الى ايقاظ هذه الرقّة من المشاعر تجاه القريب وآلامه، والعمل على تنميتها. وقد اصبح هذا السامري الانجيلي صورة عنها. وواضح ان على الكنيسة

ايضاً ان تعمل - واذا امكن بطريقة اعمق - على استكشاف الاسباب التي اعطاها المسيح في هذا المثل وفي الانجيل بكامله. وترتكز اهمّية مثل السامري الصالح كالانجيل بمجمله، قبل كلّ، على هذا وهو: ان على الانسان ان يشعر بانه مدعو الى القيام بدور اساسي في مجال تأدية شهادة المحبة في الألم. ولا شك في ان للمؤسسات اهمّيتها ولا غنى عنها، غير انه ما من مؤسّسة تستطيع بذاتها ان تقوم مقام القلب البشري، والعاطفة الانسانية، عندما يجب الذهاب الى ملاقاة ألم الغير. وهذا يصحّ في آلام الجسد، لكنه يصحّ باولى حجّة في الآلام المعنويّة، وعلى الأخص، في آلام النفس.

٣٠. ان مثل السامري الصالح الذي - على ما قلنا - يندرج في اطار انجيل الألم، يخترق مع الانجيل تاريخ الكنيسة والمسيحية، وتاريخ الانسان والبشرية. وهو يشهد ان ما كشف عنه المسيح من معنى الألم الخلاصي ليس، في ايّ حال، مرادفاً للامبالاة. لا بل ان العكس هو الصحيح. والانجيل يحارب اللامبالاة حيال الألم. والمسيح في هذا المجال فعّال جدّاً. وهكذا فانه ينفّذ مخطّط رسالته المسيحاني، على ما يقول النبي: «روح الربّ عليّ، ولهذا مسحني، لابشّر المساكين، وارسلني لانادي للمسبيّين بالافراج، وللعميان بالبصر، وللمأسورين بالتخلية، واعلن السنة المقبولة للربّ»[٩٣]. وقد اتمّ المسيح هذا المخطّط المسيحاني في رسالته على

٩٣ - لو ٤، ١٨ - ١٩؛ راجع اشعيا ٦١، ١ - ٢

اكمل وجه: فمرّ وهو «يحسن الى الناس»[٩٤]، وتبرز مآتيه الخيّرة بالتخفيف من الآلام البشرية. وينسجم مثل السامري الصالح كل الانسجام مع تصرّف المسيح عينه.

ويندرج اخيراً هذا المثل، من حيث موضوعه الاساسي، في عبارات الدينونة الاخيرة التي تضطرب لها النفس، والتي اوردها متّى في انجيله: «هلمّ يا مباركي ابي، رثوا الملك المعدّ لكم من قبل انشاء العالم. لأني جعت فأطعمتموني، وعطشت فسقيتموني، وكنت غريباً فآويتموني، وعرياناً فكسوتموني، ومريضاً فعدتموني، ومحبوساً فزرتموني»[٩٥]. ويجيب ابن الانسان الابرار الذين سألوه متى صنعوا له هذا كلّه، بقوله: «الحقّ اقول لكم: ان كلّ ما صنعتموه الى احد اخوتي هؤلاء الصغار، فاليّ صنعتموه»[٩٦]. ويصدر حكماً مخالفاً على الذين تصرّفوا خلاف ذلك، فيقول: «ان ما لم تصنعوه الى احد اخوتي هؤلاء الصغار، فاليّ لم تصنعوه»[٩٧].

ويمكن، على وجه التأكيد، اطالة لائحة الآلام التي اثارت مشاعر التعاطف الانساني والشفقة، والمساعدة، او انها لم تثرها. واعلانا السيد المسيح الاول والثاني، بشأن الدينونة الاخيرة، يشيران، دونما ابهام وبكلّ وضوح، الى كم هو هامّ - نظراً الى الحياة الابدية بالنسبة الى كل

٩٤ - اعمال ١٠، ٣٨
٩٥ - متّى ٢٥، ٣٤ - ٣٦
٩٦ - متّى ٢٥، ٤٠
٩٧ - متّى ٢٥، ٤٥

انسان ـ هذا «التوقّف»، على مثال ما فعل السامري، على آلام القريب، و «الشفقة» عليه، واخيراً مساعدته. ووجود الألم في العالم، في مخطّط المسيح المسيحاني، الذي هو مخطّط ملكوت الله، من شأنه استثارة مشاعر المحبة، والحثّ على نشاطات محبة في جانب القريب، وتحويل الحضارة الانسانية، الى «حضارة محبة». وفي هذه المحبة، يتحقّق تماماً معنى الألم الخلاصي، ويبلغ مداه الاخير. وكلام السيد المسيح، في الدينونة الاخيرة يشرح هذا كلّه ببساطة الانجيل ووضوحه التام.

وهذه الاقوال في المحبة، واعمال المحبة المرتبطة بالألم البشري، تكشف لنا مرّة جديدة عن انّ آلام المسيح الفادية تكمن في جميع الآلام البشرية. لقد قال المسيح: «اليّ صنعتموه». انه هو من يختبر المحبة، في كل انسان، وهو من يتلقّى المساعدة، عندما تُحمل هذه الى كل شعب، دونما تمييز. وهو من هو حاضر في من يتألّم، لأن ألمه الخلاصي قد امتدّ، مرّة والى الأبد، الى كل ألم بشري. وكل الذين يتألّمون مدفوعون، مرّة والى الابد، الى الاشتراك في «آلام المسيح»[98]. وكذلك انهم جميعاً ملزمون «باتمام» «ما ينقص من آلام المسيح»[99] بآلامهم. لقد علّم المسيح، في الوقت عينه، الناس ان يصنعوا الخير بواسطة الألم، وان يصنعوا الخير لمن يتألّم. ومن هذا الباب المزدوج اطلّ علينا بمعنى الألم العميق.

٩٨ ـ ١ بطر ٤، ١٣
٩٩ ـ كولوسي ١، ٢٤

٨
الختام

٣١. هـذا هـو، في الحقيـقـة، معـنى الألم الفـائـق الطبيعة والبشري، في آن معاً. انه فائق الطبيعة لأنه راسخ في السرّ الالهي، سرّ فداء العالم. وهو، في الوقت عينه، بشري تماماً لأن الانسان يجد فيه ذاته، وانسانيته، وكرامته، ورسالته.

ممّا لا شك فيه ان الألم هو من سرّ الانسان. ولعلّ الألم لا يلفّه هذا السرّ المغلّف باحكام، كما يلّف الانسان. وقد اعلن المجمع الفاتيكاني الثاني هذه الحقيقة بقوله: «في الحقيقة لا ينجلي سرّ الانسان تماماً الا في سـرّ الكلمة المتجسّد... لأن المسيح، آدم الجديد، اظهر، تماماً لدى كشفه عن سرّ الآب ومحبته، الانسان للانسان واوضح له دعوته السامية»[١٠٠]. واذا كان هذا القول يتناول كل ما يتعلّق بسرّ الانسان، فهو يتناول، على وجه الخصوص،

١٠٠ ـ المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، دستور رعوي في الكنيسة في عالم اليوم، فرح وأمل، عد ٢٢

الألم البشري. ومن الضرورة، في هذا المجال، ان «يظهر الانسان للانسان، وتتّضح له دعوته السامية». قد يحدث - وهذا ما يثبته الاختبار - ان يكون في ذلك صعوبة بالغة. لكن اذا تحقّق ذلك وانعكس نوره على الحياة البشرية، كان مصدر سعادة. «بالمسيح وفي المسيح ينجلي لغز الألم والموت»[101].

ونختتم هذه الخواطر في الألم، في هذه السنة التي تحتفل فيها الكنيسة باليوبيل الاستثنائي الخاص بذكرى الفداء.

وسرّ الفداء البشري راسخ رسوخاً عجيباً في الألم، وهذا الألم يرتبط بدوره بهذا السرّ العميق.

وانّا نرغب في قضاء سنة الفداء هذه بالاتّحاد الوثيق بجميع الذين يتألّمون. فينبغي اذن ان يجتمع، بالفكر والعقل، في ظلّ صليب الجلجلة، جميع المتألّمين الذين يؤمنون بالمسيح، وعلى الاخص الذين يعنّتون بسبب ايمانهم بذاك الذي علّق على الصليب وقام، لكي تعجّل تقدمتهم آلامهم في تحقيق صلاة المخلّص عينه من اجل وحدة الجميع[102].

وليجتمع هناك ايضاً اصحاب الارادة الصالحة، لأن «فادي الانسان» هو على الصليب، اي رجل الاوجاع الذي أخذ على عاتقه آلام الناس الجسدية والنفسية، عبر

١٠١ - الموضع ذاته

١٠٢ - راجع يو ١٧، ١١ و ٢١ - ٢٢

كلّ الازمنة، لكي يتمكّنوا، في المحبة، من تفهّم معنى آلامهم الخلاصي والاجوبة الراهنة على كل الاسئلة التي تطرحها.

وبالاتحاد مع مريم، امّ المسيح، التي كانت واقفة حذاء الصليب[١٠٣]، نقف لنرى جميع صلبان اناس اليوم.

ونتضرّع الى جميع القديسين الذين شاركوا، على مرّ العصور، مشاركة خاصّة، في آلام المسيح، ونلتمس منهم المساندة.

ونسألكم جميعاً، انتم الذين يقاسون الآلام، ان تساندونا. ونطلب منكم، انتم المرضى والضعفاء، ان تكونوا كينبوع قوّة للكنيسة وللبشرية. وفي هذا الصراع الهائل بين الخير والشرّ، الذي يتّخذ من عصرنا مسرحاً له، لتكن الغلبة لألمكم المقرون بصليب المسيح.

ونمنحكم جميعاً، ايها الاخوة والابناء الاحباء، بركتنا الرسولية.

اعطي في روما، قرب القديس بطرس، في اليوم الحادي عشر من شهر شباط، في ذكرى الطوباوية مريم، عذراء لورد، ١٩٨٤، السادسة لحبريتنا.

البابا يوحنا بولس الثاني

١٠٣ ـ راجع يو ١٩، ٢٥

الفهرس

